وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم: التاريخ

صورة المجتمع الأندلسي عند الرحالة والجغرافيين على عهد الأمويين (138هـ،756م/422هـ،1032م)

ابن حوقل أنموذجا

مذكرة مقدمة لاستكمال شهادة ماستر أكاديمي في التاريخ

تخصص:تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط

من إعداد الطلبة:

علي حويج

محي الدين غيلاني

إشراف الأستاذ:

حميد زيدور

نوقشت المذكرة علنا يوم:2023/06/08

أمام اللجنة المكونة من الأساتذة :

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
علي شعوة	أستاذ محاضر أ	جامعة الشهيد حمة لخضر	رئيسا
حميد زيدور	أستاذ مساعد أ	جامعة الشهيد حمة لخضر	مشرفا ومقررا
واعظ نويوة	أستاذ مساعد أ	جامعة الشهيد حمة لخضر	ممتحنا

السنة الدراسية: 2022-2023

بسم الله الرحمان الرحيم

شكر وتقديـــر

نشكر الله سبحانه ونحمده وتعالى على نعمه وتوفيقه لنا لإنجازنا هذا العمل

كما نتوجه بالشكر والعرفان لأستاذنا الفاضل " زيدور حميد " الذي كان بمثابة الأخ والصديق والمرشد

والناصح، حيث لم يبخل علينا بنصائحه وتوجيهاته القيِّمة

رغم كثرة التزاماته ومشاغله

كما لا يفوتنا أن نوجه شكرنا وفائق امتناننا إلى أستاذة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية خاصة قسم

التاريخ وكل من قدم لنا يد العون والمساعدة سواء من قريب أو من بعيد

الإهداء

إلى من أهدوا لنا حياة الحرية والكرامة...وطلبوا الشهادة لتوهب لنا الحياة

إلى من سقوا بدمائهم الزكية هذه الأرض المباركة بكل صفاء وخلدوا ذكراهم بأروع صور التضحية والشجاعة والإيمان بالله

... أهدي هذا العمل

...إلى أمي الغالية، وإلى والدي العزيز " صالح" رحمه الله، وإلى أبنائي احمد صالح وأساور الذهب وكل العائلة وإلى جميع الأصدقاء وكل من يعرف علي ومن أحببناهم في الله.

حويج علي

الإهداء

إلى من أهدوا لنا حياة الحرية والكرامة...وطلبوا الشهادة لتوهب لنا الحياة

إلى من سقوا بدمائهم الزكية هذه الأرض المباركة بكل صفاء وخلدوا ذكراهم بأروع صور التضحية والشجاعة والإيمان بالله

... أهدي هذا العمل

إلى من أضاءت لنا درب الحياة بنور الأخلاق والتربية الفاضلة:

...إلى أمي الغالية، إلى والدي العزيز " عبد القادر " رحمه الله، وإلى كل أفراد عائلتي وإلى جميع الأصدقاء وزملاء العمل والدراسة ومن أحببناهم في الله.

غيلاني محي الدين

فهرس المحتويات

شكر وتقديـــر II

الإهداء IV

فهرس المحتويات V

قائمة المختصرات VI

الملخص VII

مقدمة ..... أ-د

الفصل الأول: الرحلات والجغرافيا عند العرب والمسلمين

أولا: أدب الرحلات وتطوره عند العرب 6

ثانيا: أغراض ودوافع الرحلات عند العرب والمسلمين 8

ثالثا: نماذج لمشاهير الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين في القرن الرابع هجري 12

الفصل الثاني: إبن حوقل وكتاب صورة الأرض

أولا: سيرة وحياة إبن حوقل 20

ثانيا: أهمية ومكانة إبن حوقل في الفكر الجغرافي 22

ثالثا التعريف بكتاب صورة الأرض وأهم مصادره 24

الفصل الثالث: صورة المجتمع الأندلسي من خلال كتاب صورة الأرض

أولا:السلطة الحاكمة والنظام الحربي في الأندلس من خلال صورة الأرض 32

ثانيا: الحياة الإجتماعية والإقتصادية في الأندلس من خلال صورة الأرض 37

ثالثا: دوافع النظرة السلبية لابن حوقل حول السلطة والنظام الحربي الأندلسي 41

خاتمة 45

قائمة الملاحق 48

المصادر والمراجع 54

قائمة المختصرات

الكلمة	الاختصار
الطبعة	ط
الجزء	ج
الصفحة	ص
ترجمة	تر
تحقيق	تح
العدد	ع
المجلد	مج

الملخص

تناولنا في هذه الدراسة موضوع صورة المجتمع الأندلسي عند الرحالة والجغرافيين في العهد الأموي(138هـ،756م/422هـ،1032م) من خلال كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل ،حيث قدمنا في البداية عرضا لأهم الدوافع والأغراض المساهمة والدافعة للترحال والسفر، مع ذكر أهم النماذج من الرحالة والجغرافيين الذين إشتهروا وذاع صيتهم في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والذين إعتمدوا في تدوين مصنفاتهم على المشاهدة والمعاينة خلال رحلاتهم، وتكتسي هذه النصوص المصدرية أهمية كبرى لكل باحث في مجال الفكر الجغرافي والعمراني والحضاري ومختلف جوانب الحياة السياسية والإجتماعية والسياسية والدينية والثقافية، ويعتبر الرحالة المشرقي إبن حوقل البغدادي الذي طاف الأقاليم الإسلامية قرابة ثلاثين سنة ونقل تجاربه ومشاهداته وأهم المحطات التي زارها وعاش بين أهلها من أهمهم ،والذي ختم رحلته بتدوين مصنفه (صورة الأرض) ،الذي يعد من أبرز المؤلفات الهامة في الفكر الجغرافي العربي والإسلامي ، وكان من بين المحطات التي زارها إبن حوقل وأقام فيها وضمنها في جزء من كتابه هذا بلاد الأندلس على عهد الخلافة الأموية زمن حكم الخليفة عبد الرحمان الناصر، وكان لابن حوقل نظرة ورؤية خاصة عن مجتمعها وأهلها وسلطتها ،رأي إنفرد به عن غيره ،تبرز من خلاله دوافعه وميولاته الشخصية والتي يمكن إستنتاجها من خلال تحليل بعض نصوص كتابه (صورة الأرض).

الكلمات المفتاحية: المجتمع الأندلسي – الرحالة – الجغرافيين – عهد الأمويين – ابن حوقل

Summary

In this study, we dealt with the subject of one of the images of the Andalusian society among travelers and geographers in the Umayyad era (138 AH / 422 AH). through the book (The Image of the Earth) by Ibn Hawqal, through which we tried at the beginning to present the most important motives and purposes contributing and driving travel and travel with mentioning the most important models of travelers And the geographers who became famous and became famous in the fourth century AH (tenth AD) who relied on observation and inspection during their travels in codifying their works. Hawqal al-Baghdadi, who toured the Islamic regions for nearly thirty years, conveyed his experiences and observations, and the most important stations he visited and lived among its people. Part of his book, Bilad al-Andalus, the era of the Umayyad caliphate, the era of the caliph Abd al-Rahman al-Nasser, who had a special view and vision about its society, its people, and its authority.

Keywords: Andalusian society - travelers - geographers - the era of the Umayyads - Ibn Hawqal.

مقدمة

بمجرد سماعك لكلمة الأندلس يتبادر إلى ذهنك وقلبك ذلك الشعور الذي كله أسى وحزن وحسرة على إنفلات أحد أهم ركائز الدولة الإسلامية بتلك البساطة والسهولة، والتي كانت تمثل مركز إشعاع حضاري في كافة المجالات ،خاصة في عصرها الذهبي عهد الخلافة الأموية في الأندلس حيث كانت محل إستقطاب جميع البشر من كافة مناطق العالم ،بمختلف أجناسهم ومستوياتهم وكانت مفتوحة أمام الجميع وقصدها الرحالة والجغرافيون ودونوا وكتبوا مشاهدتهم وتجاربهم ومعايشتهم للمجتمع الأندلسي، في نصوص ومؤلفات فتحت الآفاق المعرفية وإستقصت العادات البشرية، ودونت المشاهدات والتجارب، وإقتحمت الحدود السياسية، ورسمت حدود الخرائط الجغرافية ،فكانت هذه النصوص مصدرا مهما لتاريخ الأندلس الإجتماعي والسياسي والإقتصادي والثقافي والديني، وكان لها دور حضاري في تطوير مختلف العلوم ،كما شكلت مصدرا مهما في الرد على كتابات علماء الغرب الذين حاولوا طمس هذا الدور وتحجيمه، وكان من بين الرحالة الذين وفدوا على الأندلس و أقاموا فيها فترة من الزمن، الرحالة القادم من المشرق الإسلامي ابن حوقل النصيبي البغدادي ، الذي دون رحلته إلى الأندلس ضمن مصنفه (صورة الأرض) ، وفي هذا السياق تمحور موضوع دراستنا المعنون بـ: **صورة المجتمع الأندلسي عند الرحالة والجغرافيين في العهد الأموي(138هـ،756م /422هـ،1032م) إبن حوقل أنموذجا.**

دواعي اختيار الموضوع

-تقصى مدى صحة الحقائق التي نقلها إبن حوقل في حديثه عن الأندلس ومجتمعها.

- محاولة إبراز مساهمة دور الرحالة في إثراء التراث العربي الإسلامي بالمعارف الجغرافية المتعددة التي يمكن إستغلال مادتها إجتماعيا وسياسيا ودينيا وإقتصاديا.

- الميول الشخصية لموضوع الرحلات والجغرافيا وكل ما تعلق بتاريخ الأندلس.

إشكالية الموضوع

للإحاطة بموضوع الدراسة من كل الجوانب إرتأينا طرح الإشكالية التالية:

ما هي الصورة التي نقلها إبن حوقل عن المجتمع الأندلسي خلال العهد الأموي باعتباره رحالة قادم من المشرق الإسلامي وخارج عن المغرب الإسلامي وإطاره المذهبي؟

وللإجابة عن هاته الإشكالية طرحنا التساؤلات التالية:

-ما هي دوافع وأغراض الرحلات عند العرب والمسلمين؟

-ما هي أهم المصادر التي أخذ عنها إبن حوقل أثناء تدوين مصنفه؟

-ما هو سبب تحامل إبن حوقل على أهل الأندلس وهل ما ذكره عن المجتمع الأندلسي كانت آراء موضوعية أم ذاتية؟

وللإجابة على إشكالية الدراسة إتبعنا الخطة التالية :

تناولنا في الفصل الأول التعريف بالجغرافيا والرحلات عند العرب والمسلمين، من خلال أدب الرحلات وأهم دوافعه وأغراضه ،ثم ذكرنا بعض النماذج من الرحالة العرب والمسلمين الذين ذاع صيتهم في القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي ،أما الفصل الثاني تناولنا فيه التعريف بنموذج الدراسة إبن حوقل وقراءة في سيرته وحياته وأهميته في الفكر الجغرافي، ثم التعريف بكتاب (صورة الأرض)وأهم المصادر التي إعتمد عليها ،أما الفصل الأخير تم فيه التطرق ودراسة المجتمع الأندلسي من خلال رؤية ابن حوقل وتبيان دوافع الحكم السلبي لإبن حوقل على السلطة الأموية والجيش الأندلسي ،وأخيرا خاتمة البحث وفيها حوصلة لنتيجة الدراسة .

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة فقد تنوع بين المنهج التاريخي المبنى على السرد والتحليل ،بالإضافة إلى المنهج المقارن الذي قارنا فيه بعض النصوص المصدرية ،إضافة إلى تفكيك نص ابن حوقل من حيث الذاتية والموضوعية وكل هذا يتناسب مع طبيعة موضوع الدراسة .

وخلال إنجاز هذا البحث صادفتنا بعض الصعوبات والتي تمثلت في:

-جل المصادر والمراجع أخذت عن بعضها البعض مما أدى إلى تشابه وتكرار المادة العلمية المتضمنة فيها مما إضطرنا إلى كثرة الإقتباس في هذه الدراسة خاصة في الفصل الأول .

الدراسات السابقة

يوجد بعض الدراسات ذات صلة بموضوع الدراسة نذكر منها:

- مقال تحت عنوان الأندلس من خلال كتاب صورة الأرض لـ عبد الواحد ذو النون طه، مجلة المؤرخ العربي، ع،23 بغداد 1983.

أما المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذه الدراسة نذكر منها :

كتاب (**صورة الأرض**) طبعة مكتبة الحياة بيروت ، 1992 لابن حوقل كمصدر رئيسي في إنجاز هذه الدراسة خاصة الجزء الذي تطرق فيه إلى الموضوع الخاص بزيارته للأندلس وما نقله عنها والذي دونه في قرابة تسعة صفحات حسب طبعة هذا الكتاب .

بالإضافة إلى الطبعة الأولى كتاب صورة الأرض طبعة ليدن 1873.

كتاب(**المسالك والممالك**) للإصطخري وقد إختص كتابه في مواضيع الجغرافيا الإقليمية لبلدان العالم الإسلامي،حيث درس الإصطخرى هذه البلدان بالتفصيل،باعتبارها مركز العالم،وقد قسم الإصطخرى العالم الإسلامي إلى أقاليم ومناطق واسعة،ورسم لكل إقليم إسلامي خريطة.

واعتمدنا كذلك على كتاب(**مروج الذهب ومعادن الجوهر**) للمسعودي خاصة الجزء الثاني منه والذي تحدث فيه عن الجغرافيا والرحلات، وقدم فيه دراسة جغرافية لبلاد الشام ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق وخراسان وفارس وخوزستان والهند والصين وبلاد الروم،كما تحدث عن الأديان ويُعد هذا الكتاب من أهم كتب الجغرافيا عند المسلمين.

بالإضافة إلى المقدسي وكتابه (**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**) وقد جمع مادة كتابه هذا أثناء رحلاته في البلاد الإسلامية،فقد كان تاجرًا على دراية بأحوال الناس والأقاليم،وكان منهجه في هذا الكتاب هو تحرى الدقة قدر الإمكان وما إتفق عليه العلماء، أما ماإختلفوا فيه فقد إستبعده. وقد تحدث المقدسى عن الديار الإسلامية فقط.

أما المراجع التي إعتمدنا عليها في انجاز هذه الدراسة كانت كثيرة ونذكر أهمها :

كتاب (**تاريخ الأدب الجغرافي العربي**) للمستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي قام بترجمته إلى العربية الأديب السوداني صلاح الدين عثمان هاشم، يعد أفضل ماكتب، في موضوع الأدب الجغرافي باعتباره موسوعة حقيقية دقيقة مليئة بالمعلومات والسير، والتحليلات لواحد من فنون الكتابة التي كان لها دور أساسي في إحياء التراث العربي الإسلامي و الحضارة الإسلامية ككل.

فؤاد قنديل وكتابه (**أدب الرحلات في التراث العربي**)والذي يهتم بكل ماتركه الرحالة العرب في رحلاتهم، وما شاهدوه من عجائب وغرائب، وما سجّلوه في أدب الرحلة، وما دونوه من تأملات ومشاهدات وملاحظات، وما قدمته آداب الرحلة من طاقة قصصية عظيمة، ويستعرض في كتابه هذا التعريف بأهم الرحالة

ومصنفاتهم بداية من القرن الثالث الهجري الى غاية القرن الثامن الهجري وإعتمدنا عليه بشكل خاص في تقديم ترجمة لأهم الرحالة في القرن الرابع الهجري .

وفي الأخير يمكن القول أنه تم الاعتماد بشكل خاص وقدر الإمكان على كتب ومصنفات الرحلات والجغرافيا وذلك لطبيعة موضوع الدراسة .

الفصل الأول:

الرحلات والجغرافيا عند العرب والمسلمين

أولا: أدب الرحلة وتطوره عند العرب والمسلمين

ثانيا: أغراض ودوافع الرحلات عند العرب والمسلمين

ثالثا: نماذج لمشاهير الرحالة العرب في القرن الرابع هجري

الفصل الأول: الرحلات والجغرافيا عند العرب والمسلمين

دأب الإنسان منذ أن خلقه الله تعالى على الإرتحال والسفر ،وذلك كسلوك إنساني عرفته البشرية بأشكال وأنماط مختلفة وكانت الغاية في أغلب الأحيان من أجل البحث عن الكلأ والرزق والترويح على النفس، والهروب من الأوبئة والحروب أو حتى الإستكتشاف وطلب العلوم ،ويقول أبو الحسن المسعودي:" ... ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما عنى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار واستخرج كل دقيق من معدنه وإثار كل نفيس من مكمنه...."[1]

أولا: أدب الرحلات وتطوره عند العرب

هو أدب يقوم على السرد القصصي، يحكي فيه صاحب الرحلة مشاهداته وإنطباعاته عن البلاد التي يزورها، ويقوم على وصف كل ما له علاقة بالمجتمعات من عادات الناس، وتقاليدهم وأنماط عيشهم، وتفكيرهم وسلوكياتهم ولهجاتهم ولغة تواصلهم ومهنهم وكل ما يتعلق بالحياة اليومية، وكما يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، وحتى ما تعرض له من أخطار ومشاكل ، ومن شروط أدب الرحلات دقة الملاحظة، وتحري الحقيقة وسهولة الرواية وحسن الوصف والإبداع فيه وجميع هذه الصفات لابد أن تتوفر في الرحالة[2].

شهدت الرحلة في القرن الرابع الهجري إزدهارا لم تشهده من قبل من خلال تلك المؤلفات والمصنفات التي ألفت ودونت في هذا القرن باختلاف مواضيعها في الأدب أو الجغرافيا أو الموسوعات ولم يعد الرحالة يهتمون بالرحلات فقط ويكتفون بها، بل صاروا يدونون النصوص لينقلوا أخبار البلدان والأماكن التي زاروها لغيرهم، وهنا ظهر ما يعرف بمدونات المسالك والممالك[3] .ويدخل في صنف الرحلات الجغرافية عدد كبير من المؤلفات خاصة في القرن الرابع الهجري الذي تميز بظهور عدد كبير من الرحالة من أشهرهم:

- الإصطخري صاحب كتاب (المسالك والممالك) وكتاب (الأقاليم).
- المسعودي، صاحب كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر)وله عديد المؤلفات الأخرى.
- إبن حوقل الذي زار الأقاليم الإسلامية ودون ما شاهده في كتابه (صورة الأرض) .

1 حسين محمد فهيم ،أدب الرحلات ،عالم المعرفة ،سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،الكويت،جانفي 1978،ص 06.
2 فواز الشعار، الموسوعة الثقافية العامة، الأدب العربي، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1999، ص 197.
3 ناصر عبد الرزاق الموافي،الرحلة في الأدب العربي، ط1، دار النشر للجامعات المصرية مكتبة الوفاء، القاهرة ،1995، ص 75.

- محمد المقدسي صاحب كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم).

وكانت كتاباتهم ذات طابع جغرافي وتاريخي وقد تميزوا عن غيرهم بهذه المصنفات الجغرافية، وهذا ما جعل الكثير من المستشرقين يهتمون بها ومن بينهم المستشرق الروسي إغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي والذي يعد من أهم المتخصصين بدراسة الحضارة العربية الإسلامية في جوانبها المختلفة ،من خلال ما أورده ودونه في مصنفه الجغرافي إعتمادا على نصوص الرحالة والجغرافيين العرب ،وسمى كتابه:(تاريخ الأدب الجغرافي العربي) والذي تم نشره عام 1957م وفيه عرض مفصل للجغرافيا العربية منذ ظهور التصورات الجغرافية عند العرب إلى ظهور الفروع الجغرافية الأخرى مثل الجغرافية الوصفية، والرحلات، والجغرافية البحرية العامة والإقليمية والجغرافيا البشرية[1].

1 إغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي،تاريخ الأدب الجغرافي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ج1، جامعة الدول العربية، موسكو، 1957، ص 208-215.

ثانيا: أغراض ودوافع الرحلات عند العرب والمسلمين

تعددت الرحلات واختلفت دوافعها وأغراضها باختلاف أصحابها حيث كان لكل رحالة دوافع وغايات حفزته للقيام برحلته ،كما قام الكثير من الرحالة بتدوين مشاهداته وتجاربه في مختلف المناطق التي زارها ،ولقد حث ديننا الإسلامي على الإرتحال وشجع الناس عليه، كونه يعود عليهم بمنافع في حياتهم العلمية والعملية، والدينية، وهو يرتبط إرتباطا وثيقا بالدوافع الكثيرة التي تدفع الإنسان إلى القيام بالرحلة، ويمكن تحديد أغراض ودوافع الرحلة في النقاط التالية:

أ–دوافع دينية وتعليمية

دوافع دينية: تعد من الدوافع المهمة والأساسية التي تحفز المسلم على الإرتحال خاصة ناحية بلاد المشرق الإسلامي، من أجل أداء مناسك الحج الذي أتاح للحاج أو المعتمر مشاهدة مناطق مختلفة والتعرف على مجتمعات متعددة، وقد عمل البعض على تدوين وكتابة مشاهداته وملاحظاته أثناء رحلته إلى الحج[1].

لقد مثل الذهاب إلى أداء مناسك الحج فرصة للبعض من وصف رحلتهم وتسجيل ملاحظاتهم، حيث يركب الحجيج الدروب الطويلة في اتجاه مكة المكرمة والمدينة المنورة ومن حق الحاج على سلفه أن يصف له خير الطرق من أجل الوصول إلى الأماكن المقدسة ويشرح له ما يمكن أن يتعرض له من مخاطر ومصاعب ليتغلب عليها، أو حتى من خلال تبليغ أولي الأمر على ما يجب إصلاحه من الطرق وتوفير الراحة والأمن للحجاج[2].

كان للحج الأثر الواضح في تشجيع الرحلات، حيث أوجب على المسلمين أن يسافروا من أقاصي الأرض إلى مكة لزيارتها والتعرف على مهد النبوة[3].

بالإضافة إلى رحلة الحج، شكل الإرتحال من أجل الدعوة إلى الله أو زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، والمزارات الدينية مثل قبور الأنبياء والصحابة والأولياء طلبا للمغفرة دافعا مهما للرحلة[4].

1 عبد الرحمان حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، ط1984،1، ص52.

2 نفسه،ص 53.

3 احمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، دار الشرق، بيروت،1961، ص 18.

4 فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، القاهرة ، ط2، 2002، ص 19.

دوافع طلب العلم: لقد حث الإسلام على طلب العلم فارتحل الناس إلى مختلف الحواضر والمراكز التعليمية، من الأندلس إلى بخارى ومن بغداد إلى قرطبة، ومن منابعه الأصلية في مكة المكرمة والمدينة المنورة للمشاركة في حلقات الوعظ ومجالس العلم، بغية التزود بمختلف العلوم وأخذها من أفواه الشيوخ وملاقاة العلماء[1].

من الأغراض والدوافع العلمية أيضا التوجه إلى مختلف المناطق لأخذ العلوم خاصة إذا ذاع صيت أبناء هذه المدن واشتهروا في مجال من مجالات العلوم المختلفة ،كالفقه والطب والهندسة، العمارة وغيرها، وتذكر كتب الحديث والسير أن من الفقهاء والعلماء من كان يقطع القفار ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي سمع به، أو لمجرد التحقق من كلمة فيه[2].

ويجمع علماء المسلمين على جواز ومشروعية الإرتحال من أجل طلب العلم ،حيث كان الطلاب يتعرضون للمشقة والتعب ويتكبدون الصعاب في سبيل طلب العلم من مناهله ومصادره الأصلية ،على أيدي مشاهير الرجال [3].

يشير إبن خلدون إلى أن الرحلة لا بد منها في طلب العلم واكتساب الفوائد والكمال وضرورة لقاء المشايخ ومباشرة الرجال للأخذ منهم مختلف العلوم والآداب ، حيث يفسر بأن الرحلة تمكن الطالب من لقاء شيوخ كثيرين إذ يقول إبن خلدون:".. أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علما وتعليما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ...."[4].

1 عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص 54.

2 فوائد قنديل، المرجع السابق، ص 19.

3 محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، دار المعارف، دط ، 1987ص35.

4 ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،راجع سهيل زكار، دار الفكر لطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت، ط3، 2006، ج1، ص 541.

ب- دوافع إقتصادية وسياسية

دوافع إقتصادية: لقد ساهم الرحالة في تنشيط الحركة الإقتصادية وذلك من خلال التجارة وجباية الخراج ونظام البريد، حيث حملوا معهم مختلف السلع والبضائع إلى المناطق التي يزورنها ويرتحلون إليها عبر مختلف الطرق والمسالك التجارية المعروفة في ذلك الوقت، وقد أشارت بعض النقود والآثار التي إكتشفها الباحثون أثر هؤلاء التجار في تلك المناطق[1].

بعد إتساع رقعة العالم الإسلامي أصبح بإمكان التاجر النشيط أن يتنقل بين مدينة وأخرى، يشتري ويبيع دون عوائق أو حواجز تمنعه، حاملا معه مختلف السلع والبضائع حيث يتعرف التاجر على أهل البلد ويخبر أحوالهم[2]، كما كان التجار على معرفة بالطرق والبلاد لأنهم كانوا كثيرو التجوال والترحال وهذا ما جعل الكثير من الناس يلجأ إليهم لمعرفة الطرق[3].

كما يعتبر الهروب من غلاء المعيشة والإفتقار دافعا للرحلة والسعي بحثا عن وفرة العمل والتجارة والإرتزاق وسعة العيش، ومن بين الرحالة والتجار العرب الذي قام بعدة رحلات ناحية الشرق الأقصى الصين والهند سليمان التاجر حيث كتب عن هذه البلدان التي زارها عام (235 هـ/807م) ويعد كتابه شاهدا على فضل الرحالة والتجار في تزويد قراءهم العرب بالمعلومات ووصف لطرق ومسالك البلدان التي زاروها[4].

دوافع سياسية: تمثلت في الوفود والسفارات التي يرسلها الحكام والملوك من أجل مهمات تتعلق بشؤون الحرب والسلم وحتى الفتح والغزو ومناقشة بعض القضايا وتوطيد العلاقات فيما بينهم أو حتى التخفي والتستر وراء السياحة والتجارة ولكن لأغراض دعائية وسياسية[5].

1 أحمد أبو سعد، المرجع السابق، ص 19 .
2 نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، دط، 1987 ، ص 147.
3 جورج غريب، أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، دار الثقافة بيروت، ط 3، 1979، ص 25.
4 جمال أفندي، الجغرافيا عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني،بيروت، ط1 ،1982، ص 141.
5 فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 20.

ج- دوافع سياحية وصحية

دوافع سياحية: النزعة الفطرية عند العرب للبحث وحب الإطلاع والإستكشاف "... رغبة في الطواف نفسه والسفر لذاته وحب التنقل وتغيير الأجواء والمناظر وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة ومعرفة الجديد من خلق الطبيعة والبشر، واكتساب الخبرة بالمسالك والطبائع وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالآثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والغرائب والعجائب... "[1] فكانت السياحة في أرجاء الأرض والنزهة في البلدان ومما شجع على السياحة أيضا شعور العربي بأنه في بلده مادام في ديار عربية وإسلامية [2].

دوافع صحية: وتمثلت غالبا في البحث عن التداوي والهروب من المجاعات والأوبئة والجوائح "...كالسفر للعلاج والإستشفاء، أو إراحة النفس من ألوان العناء، وتخليصها من الكدر كالإرتحال إلى المناطق الريفية ونحوها، وقد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوث..."[3].

1 فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 20.

2 عبد الرحمان حميدة، المرجع السابق، ص52.

3 فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 20.

ثالثا: نماذج لمشاهير الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين في القرن الرابع هجري

لقد كان القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) من أحفل القرون بأخبار الرحالة العرب وتجوالهم في مختلف الأقطار، ففيه وصلوا إلى شواطئ أمريكة وتوغلوا في بلاد الروس وتنقلوا في العالم الإسلامي شرقه وغربه، وتحدثوا عن التجارب والمشاهدات والعادات والتقاليد ،ومخالطتهم لسكان تلك المناطق من خلال رحلاتهم في مؤلفات لم يزل بعضها حتى اليوم دليل المؤرخ والباحث ومرجعا من أهم المراجع عن البلدان التي زاروها، ولم يعد الرحالة يهتمون بالرحلات فقط، ويكتفون بها، بل صاروا يدونونها لينقلوا أخبار البلدان والأماكن التي زاروها لغيرهم وفيما يلي ذكر لبعض رحالة وجغرافيي القرن الرابع الهجري:

أ: الإصطخري وكتاب المسالك والممالك

– الإصطخري: يعد الاصطخري أحد كبار الرحالة والجغرافيين العرب الذين برزوا في القرن الرابع الهجري حيث جاب الآفاق وارتحل إلى مختلف الأمصار قرابة ربع قرن.

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، ويقال له الكرخي.[1]عاش بمدينة إصطخر الموجودة في إيران ثم إنتقل إلى مدينة بغداد كعادة أبناء الفرس لتلقي العلوم فيها،[2]وكان الإصخري يحب السفر والإرتحال لأنه السبيل الأول للإستزادة ونهل المعارف وتحصيل مختلف العلوم والسياحة والرياضة وتجديد العقل والوجدان، حيث زار معظم البلاد الإسلامية بعد أن هاجر من بلاده لظروف سياسية ويعد الإصطخري أحد الجغرافيين الذين جمعوا مادتهم العلمية عن طريق المشاهدة بمعاينة الأماكن الجغرافية ووصفها إضافة إلى ما قرأه في مصنفات من سبقه. وقد طاف بلاداً كثيرة مبتدئاً بديار العرب، من الخليج إلى المحيط الأطلسي كما زار بعض بلاد الهند، إضافة إلى بلاد فارس موطنه الأصلي، التي علمها جيدا ودليل ذلك عندما قام بوصف مدنها وأحيائها وحصونها وأنهارها وبحارها بالتفصيل[3].

1 خير الدين الزركلي،الأعلام، دار العلم للملايين ، بيروت، ط4، ج1، 2002، ص 61.

2 فؤاد قنديل، مرجع سابق، ص 178.

3 إبن سعيد المغربي، كتاب لجغرافيا، ط1، تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري لطباعة والنشر،بيروت، ،1970، ص 38.

-كتاب المسالك والممالك

يتضح من خلال الكتاب الذي ألفه الإصطخري تحت عنوان (المسالك والممالك) أنه كان من أحسن ما كتب في العصر الوسيط، وذلك لكثرة الخرائط التي إستعملها للإيضاح وما أورده في كتابه من معلومات تتعلق بالحدود والمسافات وطرق المواصلات وذكره لتفاصيل تتعلق بالحياة الإجتماعية والإقتصادية في مختلف الأقطار التي زارها، وقسم العالم الإسلامي إلى عشرين إقليما [1]،وقد إعتمد الإصطخري في تأليف كتابه هذا بناءا على ما شاهده وعايشه خلال رحلاته وعلى ما نقله عن كتاب صور الأقاليم لأبي زيد البلخي وصحح الكثير مما جاء فيه[2].

إلتقى الإصطخري مع إبن حوقل في عام (340 هـ/951م) وكان يحمل معه نسخة من كتاب المسالك والممالك، وعرض عليه بعض ملاحظاته عن الكتاب فكلفه الإصطخري بتصحيحه وتنقيحه خاصة بالجزء المتعلق بمصر وبلاد المغرب[3].

تم نشر كتاب (المسالك والممالك) للإصطخري أول مرة عام 1839م من طرف د. مولر مختصر عن نسخة مخطوطة لعام (690 هـ/1291م). نقلها مولر ووضع لها مقدمة باللاتينية[4]ثم أعاد نشره المستشرق دي خوي عام (1287هـ/1870م) في ليدن بهولندا، وتمت إعادة طباعته بالصور مرة أخرى العام (1246 هـ/1830م). حقق الدكتور المصري محمد جابر عبد العال الحيني الكتاب عام (1381هـ/1961م) وتم نشره من طرف وزارة الثقافة المصرية بالقاهرة[5].

1 أبو إسحاق بن محمد الاصطخري، المسالك والممالك، مطبعةبريل، ليدن ،هولندا، 1927 ، ص03 .

2 زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي،بيروت،1980، ص 36.

3 ابن سعيد المغربي، مرجع سابق، ص 38.

4 فؤاد قنديل، المرجع السابق، ص 180.

5 علي بن عبد الله الرفاعي، رروا‌د علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، المملكة العربية السعودية ،1410 هـ، ص 103.

ب: المسعودي وكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر

– **المسعودي**: هو علي بن حسين بن علي أبو الحسن، ويكنى أبو الحسن ينتهي نسبه إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، ومن هنا جاءت التسمية بالمسعودي[1]،ولد العام (287هـ/900م) بمدينة بغداد ،نشأ وترعرع فيها[2]، كان ملما بالتراث الأدبي لعصره وبمختلف نواحي العلوم، ثم إرتحل يجوب الأقطار والمدن للسياحة ولطلب العلم وجمع الحقائق، والإتصال المباشر مع مختلف طبقات المجتمع، والتي على ضوئها دون كتبه وأخبار رحلاته وكانت له عشرات المصنفات[3]،كما عرف عنه إستقصائه عن الأحداث التاريخية وكل ما تعلق بالجغرافية ، إعتمادا على الروايات الشفاهية وتدقيق الملاحظة. ، فكان في كل مرة يستوفي فيها معلوماته يقوم بتدوينها وإعادة تنقيحها من جديد ، فيحذف منها غير الموثق، لذا تميزت مصنفاته بالدقة والأصالة والأمانة العلمية وذلك من خلال حرصه الشديد على نقل الحقيقة والواقع ، وتفوق بذلك على كثير من الرحالة الذين كانوا يدونون كل ما يسمعونه من روايات وأساطير وخرافات دون تحقيق[4].

قام المسعودي برحلتين الأولى عام (309 هـ /921م)، والتي كانت باتجاه بلاد الفرس حيث إستقر بمدينة إصطخر، ثم توجه منها إلى الهند والصين شرقا والمحيط الهندي ثم إنتقل إلى مدغشقر وعمان، أما الرحلة الثانية كانت عام (314هـ/ 926 م) وتعرف فيها على مناطق ما وراء النهر وأذربيجان والشام وفلسطين وآسيا الصغرى ثم إستقر بمدينة الفسطاط بمصر عام (331هـ / 942 م)[5].

1 الزركلي مصدر سابق، ج 4، ص 277.
2 علي بن عبد الله الرفاعي، مرجع سابق، ص 116.
3 كارتشكوفسكي، مرجع سابق ، ص 177.
4 علي بن عبد الله الرفاعي ، مرجع سابق ،ص ص 114 115.
5 جورج غريب، مرجع سابق، ص 29.

– كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر:

ألف المسعودي عشرات الكتب ويعد كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) من أشهرها، حيث أن الباحث والمطالع بين نصوص ثنايا هذا الكتاب يتعجب من كثرة المعلومات الواردة فيه، وعلى ما إشتمل من الأخبار التي لها علاقة بالتاريخ والجغرافيا والحكام والأمراء والملوك وكل ما تعلق بتاريخ الشعوب[1].

إنتهى المسعودي من جمع وترتيب وتصنيف كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) سنة (336 هـ / 947 م)، ثم أعاد ضبطه وتنقيحه مرة أخرى سنة (345 هـ/956م)[2]، وطبع الكتاب في جزئين، تطرق الجزء الأول إلى أخبار ومعلومات تتعلق بالخليقة وقصص الأنبياء والرسل وتاريخ الأمم والشعوب القديمة، ونقل عاداتهم ومذاهبهم وأخلاطهم وأمزجتهم ثم تحدث عن ظهور الإسلام حتى مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه. أما الجزء الثاني فقد شمل تاريخ العالم الإسلامي بداية من خلافة على رضي الله عنه إلى عهد الخليفة العباسي المطيع لأمر الله (336 هـ / 947 م)[3].

قام المستشرق الفرنسي بارنيه دي مسينا بنقله إلى اللغة الفرنسية بين سنتي 1861م-1877 م في مجلدان، وكان قبله المستشرق الإنجليزي مبرجر قد تمكن من طبع الجزء الأول بالإنجليزية سنة 1841 م، ثم قام المصري محمد محي الدين عبد الحميد بتحقيقه وقدمت دار الشعب المصرية بالقاهرة طبعة من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر سنة 1967 م[4].

1 علي بن عبد الله الرفاعي، مرجع سابق، ص117.
2 فواد قنديل، مرجع سابق، ص 216.
3 أبو حسن بن علي المسعودي، ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج1، ن المكتبة العصرية،بيروت، ص06.
4 فواد قنديل، مرجع سابق، ص 217.

ج: المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

–المقدسي: يعتبر أحد أبرز جغرافيي القرن الرابع الهجري (العشر الميلادي) واشتهر بعدة أسماء منها المقدسي والبشاري وإسمه الكامل شمس الدين أبو عبد الله[1] محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري[2] ،عرف بالبناء نسبة إلى جده الذي إشتهر بالبناء في مدينة عكة وكان مولد المقدسي عام (335 هـ/ 946 م) في بيت المقدس[3].

يقول المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ".... ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي ومقري وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح وواراق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحليفي ومتؤدب ....."وذلك لكثرة البلدان التي زارها و المواضيع والمجالس والمناسبات التي شاركها مع مختلف المجتمعات التي عاش بينها وكان القصد وراء هذه الأسماء الكثيرة المخالطة والإندماج داخل المجتمع ودراسة أحواله الإجتماعية والإقتصادية عن كثب[4].

عاش المقدسي صباه وشبابه في مدينة القدس ثم إرتحل إلى مدينة العلم والعلماء بغداد ،من أجل الدراسة والتزود بمختلف العلوم وملازمة دور الكتب والإطلاع عليها خاصة كتب الرحلات والأسفار والجغرافيا ،ثم بدأ العمل على مراجعة ما ألف في بعض كتب الجغرافيا[5]،مثل البلخي وإبن فقيه ووجد أن كتاباتهم كانت تتم عن طريق نقل الروايات من طرف الغرباء والتجار ،فعزم على زيارة الأقاليم والأمصار الإسلامية دون بلاد الكفر، ولأن الجغرافيا حسب رأي المقدسي تتطلب التجربة والمشاهدة ،ومعايشة أفراد المجتمع أحوالهم وعاداتهم وتقاليدهم

1 كارتشكوفسكي، مرجع سابق، ص 209.

2 الزركلي، مصدر سابق، ج5، ص 312.

3 علي بن عبد الله الرفاعي، مرجع سابق، ص 124.

4 شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3،مكتبة مدبولي القاهرة، 1991، ص ص 43 44

5 احمد أبو سعد، مرجع سابق، ص 77.

ومناسباتهم وليست بالقياس، وقام بتقسيم العالم الإسلامي إلى أربعة عشر إقليما سبعة أقاليم للعجم وسبعة أقاليم للعرب[1].

– كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)

إمتاز المقدسي بكثرة ملاحظاته وسعة نظره وكان شديد الحرص على التعرف عن البلاد وسكانها فاستطاع وهو في عمر الأربعين أن يؤلف كتابه المعروف (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)[2].

يقول في مقدمة كتابه "...ماتم ليجمع الكتاب إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي في أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء ومخالطتي الزهاد والمتصوفين وحضوري مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة في كل بلد ...."[3].

يمكن تقسيم كتابه إلى ثلاثة أجزاء إعتمادا على المصادر التي نقل منها:

_ ما شاهده ولاحظه بنفسه وعايشه في مختلف الأقاليم التي زارها .

_ ما سمعه من أناس ذوي ثقة وأعاد التثبت والتحقق منه .

ـــ ما وجده مكتوبا من نصوص ودون في الكتب السابقة وعمل على التحقق منه[4].

قام المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) بذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من البحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة،ومنازلها المسكونة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، والمعادان والأسواق،وإختلاف أهل البلدان في الكلام واللهجات والألوان والأعراق،والمذاهب والمكاييل والأوزان، والنقود والمعاملات المالية،والمأكولات والمشروبات وكل ما تعلق بحياتهم اليومية.

6 المقدسي، مصدر سابق، ص 09.
1 كارتشكوفسكي، ص 209.
2 المقدسي، مصدر سابق، ص 02.
3 جمال أفندي، مرجع سابق، ص133.

وجد كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم في نسختين النسخة الأولى التي كانت عام (375 هـ/ 985 م) والتي أهدها المؤلف إلى سلطان آل ساسان في شرق إيران أما النسخة الثانية والتي أعاد المقدسي كتابتها عام (378هـ / 988 م) أهدها إلى الفاطميين، وتوجد اليوم النسختين الأولى بإسطنبول والأخرى ببرلين وتم نشر الكتاب أول مرة عام 1906 م من طرف المستشرق دي خويه والذي تم طبعه في ليدن بهولندا، وكانت آخر الطبعات عام 1991م، والتي قامت بنشرها مطبعة مدبولي بالقاهرة دون تحقيق[1].

1 فواد قنديل ، مرجع سابق ،ص ص 271 272.

الفصل الثاني:

إبن حوقل وكتابه صورة الأرض

أولا: سيرة وحياة إبن حوقل

ثانيا: أهمية ومكانة إبن حوقل في الفكر الجغرافي

ثالث: التعريف بكتاب صورة الأرض وأهم مصادره

الفصل الثاني: إبن حوقل وكتاب صورة الأرض

أولا: سيرة وحياة إبن حوقل

هو أبو القاسم محمد بن علي البغدادي أحد أشهر الرحالة والجغرافيين في القرن الرابع الهجري وهو رحالة وتاجر،[1]ويعرف بابن حوقل النصيبي الموصلي، مولده كان في مدينة بغداد ولم تحدد المصادر والمراجع تاريخا لمولده ويمكن العثور على إشارات ترجح أن مولده كان أواخر القرن الثالث الهجري، من خلال كتاب (صورة الأرض) وذلك في معرض حديثه عن بلاد الشام وخراجها ،حيث يقول "ورأيت ارتفاع الشام وما في ضمنها من الأعمال والأجناد والتي أقف عله من جماعة علي بن عيسى ومحمد بن سلمان لسنة ست وتسعين ومائتين وسنة ست وثلاثمائة من جميع وجوهها إلى حقوق بيت المال وما يلزم له من التوابع دون أرزاق العمال تسعة وثلاثون ألف درهم "[2] ثم إرتحل إلى مدينة الموصل وعاش فيها وامتهن التجارة ثم غادرها إلى عاصمة الخلافة مدينة بغداد، وكان منذ صغره مولعا ومهتما بمطالعة كتب البلدان والجغرافيا والرحلات،[3]فعزم على أن يضع كتابا في الجغرافيا لا يأخذه من أفواه الناس ولا مما قرأه وإنما يأخذه مما شاهده ولاحظه وعاشه مع مجتمعات العالم الإسلامي[4].

غادر إبن حوقل مدينة بغداد يوم الخميس السابع من شهر رمضان عام (331 هـ/942م) رغبة في دراسة الشعوب والبلدان والإرتزاق من التجارة، فطاف العالم الإسلامي شرقه وغربه، وعاش إبن حوقل فترة من الزمن في قرطبة أيام حكم عبد الرحمان الناصر، أي عصر إزدهار الخلافة الأموية في الأندلس[5]، ومما زاد حبه وإهتمامه بالجغرافيا والرحلات إلتقائه بالإصطخري عام (340 هـ/951م) على أرجح الأقوال وهو يحمل نسخة من كتاب الإصطخري فطلب منه تنقيحه وتصحيح بعض المعلومات الواردة فيه[6]وقد ذكر إبن حوقل هذا اللقاء حيث يقول "ولقد لقيت أبا إسحاق الفارسي وقد صور هذه الصورة لأرض السند فخلطها وصور فارس فجوزها وقد كنت صورت أذربيجان التي في هذه الصفحة فاستحسنها والجزيرة فاستنجادها، وأخرج التي لمصر فاسدة، وللمغرب

1 خير الدين الزركلي ،مصدر سابق ،ج5،ص 111.
2 ابن حوقل ، صورة الأرض،مكتبة الحياة ، بيروت ، دط ، 1991،ص ص 172 173.
3 عبد الرحمان حميدة ، مرجع سابق ،ص 210.
4 شوقي ضيف ، الرحلات ، ط 4،دار المعارف، القاهرة ، ص 12.
5 ابن حوقل، ،المصدر السابق ص ص 10 11.
6 كرتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ص 201.

أكثرها خطأ. وقال: قد نظرتُ في مولدك و أثرك، وأنا أسألك إصلاح كتابي هذا حيث ضللتُ؛ فأصلحتُ منه غيرَ شكلٍ وعزوته إليه[1] ".

إشتهر إبن حوقل عن معاصريه وسابقيه في مجال رسم الخرائط حيث تمكن من رسم الخرائط بشكل دقيق وأصبحت له نظريات وآراء مختلفة كانت نتيجة رحلاته المتكررة التي دامت قرابة ثلاثين سنة في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي[2].

إختلفت الروايات في ذكر تاريخ وفاة إبن حوقل ،حيث يذكر كل من إسماعيل باشا البغدادي في كتابه هدية العارفين، وحاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون أن تاريخ وفاته كان في حدود (350هـ /961م) بالأندلس[3]، وهذا تاريخ جانب الصحة والصواب لأن إبن حوقل صرح بنفسه أنه زار صقلية سنة (362هـ/972م)، أي أن وفاته كانت بعد هذا التاريخ، أما عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين يقول أن وفاته كانت سنة (367هـ/977م) ،ونجد الزركلي صاحب كتاب الأعلام يرى بأن تاريخ وفاته كان بعد (367هـ/977م)، في بغداد وهو التاريخ الأقرب إلى الصواب[4].

1 إبن حوقل، المصدر السابق، ص 284.

2 علي بن عبد الله الرفاعي ، مرجع سابق ، ص 107.

3 إسماعيل باش البغدادي ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ،مج 2، وكالة المعارف الجليلة، إستانبول،1955، ص43/حاجي خليفة ،كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي ،بيروت ، ص 1664.

4 عمر رضا كحالة ،معجم المؤلفين ،ج 11، مطبعة الترقي ، دمشق ، 1960، ص 05.

ثانيا: أهمية ومكانة إبن حوقل في الفكر الجغرافي

إن المعلومات الجغرافية التي أوردها إبن حوقل كانت في غاية الأهمية، حيث قدم صورة مختلفة عن تلك التي كانت موجودة عند سابقيه في مجال الرحلات والجغرافيا وذلك من خلال المجهود الكبير الذي بذله بنفسه إعتمادا على التحليل والمقارنة ومحاولة التعمق في نقل الوقائع والتجربة الخاصة، بالإضافة إلى محاولة فهم أوجه الإختلافات الموجودة لدى مختلف الشعوب والبلدان التي زارها، ودعم ذلك بالخرائط التي رسمها للأقاليم الإسلامية[1].

تمثلت أهمية إبن حوقل في مجال الفكر الجغرافي من خلال تأثر العديد من الكتاب والجغرافيين سواء في عصره أو حتى في العصر الحديث بالمادة العلمية والمعلومات الجغرافية التي توصل إليها، وسوف نذكر بعض النماذج التي أخذت واقتبست وردت على كتابات إبن حوقل.

-1 ياقوت الحموي (ت626هـ/1238م) صاحب كتاب (معجم البلدان) والذي إقتبس من إبن حوقل واحدا وعشرين نصا، أغلبها المتعلق بمناطق المغرب وقام بتلخيص ما كتبه إبن حوقل عن صقلية.

- 2 إبن سعيد المغربي (ت685هـ/1290م) وله كتاب المغرب في حلى المغرب حيث كانت له وجهة نظر خاصة فيما يتعلق بكتابات إبن حوقل عن أهل الأندلس عصر الخلافة الأموية، ووصفه لفرسانها بالجبن والضعف وقام بالرد عليه[2].

أما في العصر الحديث نجد كل من إغناطيوس كرتشكوفسكي صاحب كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي) يقول يجب الإعتراف بأن إبن حوقل هو الخبير الأول في مجال الجغرافيا في عصره وبصفة خاصة معلوماته التي أوردها عن بلدان المغرب [3].

1 بن قرية صالح ، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر ، المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر،2007، ص ص202 203.
2 سعد عبود سمار، إبن حوقل دراسة تاريخية في كتابه صورة الأرض، ط1، تموز للنشر والتوزيع ، دمشق ، 2016 ، ص ص68 71.
3 كراشكوفسكي ، مرجع سابق ،ص 204 .

يقول أندريه ميكيل في كتابه (جغرافيا دار الإسلام البشرية) أن إبن حوقل هو وريث الإصطخري وصنفه رفقة المقدسي كأحد أهم من رتبوا ودونوا كتب المسالك والممالك، وذلك من خلال حرصهم الشديد وعنايتهم الخاصة في البحث على تجديد آخر المعلومات المتعلقة بمختلف الأقاليم الإسلامية، وإستدل على ذلك بالمدة التي إستغرقها إبن حوقل في تدوين كتابه ومصنفه التي قاربت عشرين سنة.[1]

أما صاحب كتاب (أدب الرحلة) فؤاد قنديل يرى أن ما توصل إليه إبن حوقل في عصره وزمانه من مادة علمية، والأسلوب والمنهج الذي إتبعه في سرده ووصفه للمعلومات جعله يتفوق على أساليب الرحالة المتأخرين، وذلك لإستطاعة أي قارئ أو مطلع على كتاب (صورة الأرض) إدراك مدى البساطة والسهولة والإحاطة الكاملة بشتى الجوانب والمواضيع لأي مدينة يزورها.[2]

1 أندريه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر، تر: إبراهيم خوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983. ص 60.
2 فؤاد قنديل ، مرجع سابق ، ص 245.

ثالثا التعريف بكتاب صورة الأرض وأهم مصادره

1-كتاب صورة الأرض

إن المصنف الذي كتبه إبن حوقل يعتبر من أهم المصادر الجغرافية التي تخصصت في ميدان المسالك والممالك في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وقد ورد في بعض طبعات هذا الكتاب وصف له : هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك وذكر الأقاليم والبلدان على مر الدهور والأزمان.

ورد إسم هذا الكتاب في كثير من المصادر التي إعتمدت عليه باسم المسالك والممالك، أما الطبعة التي إعتمدنا عليها في الدراسة كانت بعنوان صورة الأرض الصادرة عن دار مكتبة الحياة، بيروت سنة 1992م، والتي تضم 432 صفحة وكانت دون تحقيق[1] .

لقد ساهم المستشرق دي خوي بعمل كبير من أجل تحقيق هذا الكتاب وكانت أولى طبعاته التي تم نشرها سنة 1873م في ليدن إعتمادا على النسخة الموجودة في خزانة أكسفورد ونسخة خزانة لندن[2]، وقام المستشرق كريمرز بنشر الطبعة الثانية للكتاب بمطبعة بريل في ليدن سنة 1938م ،وقد إعتمد بصورة خاصة على نص النسخة الموجودة في خزانة السراي بإستانبول وعلى صورها، كما أنه قابل نص الطبعة الأولى – طبعة دي خوي – وبعض المصادر الأخرى، فتمكن بعد بعض من التدقيقات والمقابلات من نشر طبعة متقنة فيها وافر التحقيق، وتحتوي على كل ما هو موجود الآن من مادة كتاب ابن حوقل[3].

كانت هناك طبعات جزئية لهذا الكتاب خصصت لبعض الأقاليم الإسلامية التي ذكرها إبن حوقل، مثل تلك التي تتعلق بصقلية مع ترجمة فرنسية سنة 1845م، والقسم الذي يتعلق بعراق العجم والمترجم إلى اللاتينية في سنة 1822م[4].

1 إبن حوقل ، المصدر السابق ، ص ص 05 06.

2 إسماعيل العربي ، المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص 33.

3 إبن حوقل ، صورة الأرض ، ج1، ط2، طبعة ليدن 1873، ص03.

4 إسماعيل العربي ، مرجع سابق ، ص 34.

إن الطريقة التي إعتمدها إبن حوقل في تقديم وإنجاز مصنفه كانت وفق الإطار أو المنهج الذي رسمه واختطه لنفسه، في التعريف والحديث على ما توصل إليه خلال رحلته الطويلة إلى بلدان العالم الإسلامي، ويذكر أن هذا التبويب والترتيب، كان مجرد تنظيم وفقط ويصفها بقوله:

"قد عملت له كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحلّ الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرّد بالأعمال المجموعة إليها ، ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض لأنّ الصورة الهنديّة التي بالقوذيان إن كانت صحيحة فكثيرة التخليط وقد جعلت لكلّ قطعة أفردتها تصويرا وشكلا يحكى موضع ذلك الإقليم ثمّ ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما في أضعافها من المدن والأصقاع وما لها من القوانين والارتفاع وما فيها من الأنهار والبحار وما يحتاج الى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات في الطرقات وما فيه من المجالب والتجارات إذ ذلك علم يتفرّد به الملوك الساسة وأهل المروات والسادة من جميع الطبقات[1]".

قسم إبن حوقل كتابه إلى قسمين:

1-القسم الأول: يضم كل من المقدمة والتي ذكر فيها بصفة عامة طبيعة الأرض و أهم العوامل والأسباب التي دفعته وشجعته على التأليف ثم تطرق إلى الصعوبات والمخاطر التي واجهته أثناء رحلاته إلى مختلف البلدان الإسلامية حيث يقول "وليعلم أن الأسباب المحرضة على تأليفه المقتضية لعمله اللذة بالإصابة في المقصد والمحبة للظفر بإبانة كل بلد والذكر الجميل من أهل التحصيل في كل مشهد[2]".

ثم إبتدأ مستعرضا ملامح البلدان التي زارها بدءا بديار العرب الجزيرة العربية وذلك لما تمثله من مكانة سامية في نفوس المسلمين لوجود الحرمين فيها ثم يذكر بحر فارس – المحيط الهندي ــ والذي يضم البحر الأحمر وبحر العرب وبحر عدن والخليج العربي ثم تطرق إلى وصف بلاد المغرب والأندلس وصقلية ثم ذكر مصر والسودان والشام وتحدث عن بحر الروم وأرض الجزيرة وذكر في آخر هذا القسم بلده العراق.

1 إبن حوقل، المصدر السابق ، ص 10.
2 نفسه ، ص 15.

2- القسم الثاني: خصص القسم الثاني من كتابه لذكر بلاد الشرق الإسلامي حيث تحدث فيه عن بلاد خوزستان، وفارس، وكرمان، والهند، وأرمينية، وأذربيجان، وطبرستان، وبحر الخزر، وسجستان، وخراسان، وبلاد ما وراء النهر مستعرضا المسافات وخصائص كل مدينة والأنهار المتواجدة فيها[1].

2- أهم مصادر كتاب صورة الأرض

إعتمد إبن حوقل في تأليف مصنفه على مصادر متنوعة غلب عليها أسلوب الدراسة الميدانية عن طريق التجربة والمشاهدة، والتي أتاحت له إكمال بعض النقائص للمعلومات التي أخذها عن سابقيه والتثبت منها ومن أجل الحصول على معارف علمية وجغرافية جديدة غير متوفرة في المصادر السابقة بالإضافة إلى مقابلة الأشخاص والإستماع منهم والإطلاع على بعض كتب سابقيه في مجال الرحلة والجغرافيا لذلك يمكن تقسيم المصادر التي اخذ منها إلى قسمين:

أ- الرحلة والمشاهدة

أدرك إبن حوقل دور التجربة الفردية للتأكد من صحة الأحداث، ونقل وتدقيق المعلومات وضرورة الرحلة والمشاهدة، والملاحظة عن قرب لكل ما تعلق بالمعلومات الشفوية، أو المدونة في الكتب، لأن أفضل ما تقدمه الرحلة هي تلك المادة العلمية الجديدة المعاصرة للأماكن التي زارها، وهناك إشارات عديدة في كتاب صورة الأرض يذكرها إبن حوقل شاهدها وحضرها شخصيا ونذكر منها:

حضوره شخصيا عقد ضمان الخراج لبعض الأقاليم والمدن لذلك كانت معلوماته دقيقة لكل ما تعلق بالجانب المالي والتجارة والضرائب وجبايات البلاد.

شاهد بنفسه في بلاد المغرب التعامل بالصكوك المالية والتي كانت موجودة في ذلك الزمن حيث يقول: "....ولقد رأيت صكّا كتب بدين على محمّد بن أبي سعدون بأودغشت وشهد عليه العدول بإثنين وأربعين ألف دينار[2]..."

1 فؤاد قنديل، مرجع سابق ، ص ص 231 232.
2 إبن حوقل، مصدر سابق ، ص 65.

وعند زيارته لصقلية شاهد ظاهرتين كانتا متلازمتين تقريبا هما كثرة المساجد وكثرة المعلمين، فعرف أن في بلرم [1]ما يزيد على مائتي مسجد، حيث أنه لم ير مثل هذا العدد في بلد من البلدان الكبار ولا سمع به إلا فيما يتذاكره أهل قرطبة. قال: "ولقد كنت واقفًا ذات يوم بها في جوار دار أبي محمد القفصي الفقيه الوثائقي، فرأيت من مسجده في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري، ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق." يتحدث عن المعلمين في صقلية يقول:"من أرثّ ما رأيته بها وأغثّه خمسة معلّمين في مكتب واحد، يعلّمون فيه الصبيان شركاء متشاكسون على باب عين شفاء يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط جبس ضبس أشقر أزرق من أقدم الناس على شهادة زور وولدان له ورجل يعرف بابن الودانى وآخر يدعى بأخى رجاء على مراتب في شركتهم[2]".

تعجب إبن حوقل من كثرة المساجد بصقلية مقارنة بمساحتها وقارنها بمدينة قرطبة:"....ولم أر لهذه العدّة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار التي تستولى على ضعف مساحتها شبها ولا سمعت من يدّعيه إلّا ما يتذاكره أهل قرطبة من أنّ بها خمس مائة مسجد ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة[3]...".

1 بلرم : وهي أعظم مدينة في جزيرة صقلية في بحر المغرب على شاطئ البحر، قال إبن حوقل :بلرم مدينة كبيرة سورها شاهق منيع مبني من حجر وجامعها كان بيعة وفيها هيكل عظيم.

2 إبن حوقل، المصدر السابق، ص 123.

3 نفسه، ص115.

ب- الروايات الشفوية والكتب العامة

تمثل القسم الثاني من المصادر التي إعتمد عليها إبن حوقل في أخذ معلوماته عبر مختلف المناطق والمدن الإسلامية التي زارها، وأولئك الأشخاص بمختلف طبقاتهم الذين إلتقى بهم سواء صدفة، أو تعمد وطلب لقائهم عن طريق المقابلة والتحدث معهم ومحاورتهم، من خلال طرح الأسئلة عليهم والتأكد من صحة رواياتهم، مما جعله لا يتردد في إضافتها إلى مصنفه بعد أن يتحقق من صدق قائلها.

وقد أشار إبن حوقل إلى ذلك في مقدمة كتابه ووضحها حيث يقول "وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً، وأخاله بما أسأله عنه خبيراً، فأجده عالماً عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه، وقد حفظت نسقه، وتأملت طرقه ووصفه، وأكثر ذلك باطلاً، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلاً، ثم أعاوده الخبرَ الذي ألتمسه والذكرَ، ليسمع الذي استوصفته، وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية، وأجمع بينها وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية[1]".

أما الشخصيات التي أخذ عنها وسمع منها إبن حوقل وأشار لها في كتابه كانت كثيرة وسوف نذكر نماذج منها:

1-أبو إسحاق عبد الله المعروف: صاحب الصك بأودغشت سمع منه الكثير من المعلومات حول قبائل البربر حيث كان عددهم قرابة ثلاثة ألاف بيت وذلك لكثرة بطونهم وأفخاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البراري وانتشارهم في الصحاري[2].

2-أبو الحارث فحل بن فلاح اللهيصي الكتامي: سمع منه إبن حوقل أخبار البلاد الدينية والإجتماعية وحدثه عن المعلمين وكثرتهم مع قلة منفعتهم في صقلية[3].

3-أبو علي سعيد: أخذ عنه إبن حوقل وسمع منه عن العادات والتقاليد الغريبة لدى البربر التي كانت موجودة بمنطقة سطيف وقبيلة كتامة وعن بعض العادات السيئة التي فرضها أبو عبد الله الداعي على أهل المنطقة[4].

أما الكتب العامة التي أخذ منها فقد أشار إلى أصحابها مع مؤلفاتهم ضمن مصنفه وكتابه ونذكر منها:

1 إبن حوقل، مصدر سابق ، ص 283.
2 نفسه،ص97.
3 نفسه، ص 20.
4 نفسه ، ص 93.

- يوسف بن إبراهيم الكاتب صاحب كتاب (أخبار الأطباء).

-عمر بن شبه صاحب كتاب (البصرة).

-عمرو بن بحر الجاحط صاحب كتاب (البلدان).

-كتاب أبو الفرج قدامة وكتاب الجيهاني وكتاب أبي القاسم الكعبي.

-كتاب المسالك والممالك للإصطخري.

ونجد بعض الكتب الأخرى التي أخذ وإقتبس منها إبن حوقل ولم يشر إليها ولم يذكر أصحابها، ويمكن القول بأن الكتب التي أخذ منها إبن حوقل تنوعت بين الجغرافيا والتاريخ وتلك الخاصة بالحياة الإجتماعية والإقتصادية[1].

1 حسام نجم الدين الشمري ، المنهج الجغرافي عند إبن حوقل ، أطروحة دكتوراه ، جامعة ديالي ، العراق ،2014 ، ص ص 91 92.

الفصل الثالث:

صورة المجتمع الأندلسي من خلال كتاب صورة الأرض

أولا: السلطة والنظام الحربي في الأندلس من خلال صورة الأرض

ثانيا: الحياة الإجتماعية والإقتصادية في الأندلس من خلال صورة الأرض

ثالثا: دواعي وأسباب النظرة السلبية لابن حوقل حول السلطة والجيش الأندلسي

الفصل الثالث: صورة المجتمع الأندلسي من خلال كتاب صورة الأرض

تكاد تتفق جل الكتابات والدراسات التاريخية والجغرافية التي تناولت تاريخ الأندلس فترة الحكم الأموي وخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر الذي أعلن قيام الخلافة الأموية بالأندلس سنة (316 هـ/928م) إلى غاية سقوطها سنة (422هـ/1031م)، إستطاعة هذا الرجل القوي الشخصية أن يجعل من الأندلس دولة مزدهرة يشهد لها و يعترف بها العدو قبل الصديق حيث قويت شوكتها ،وعم فيها الأمن والإزدهار وبلغت في عهده ذروة القوة والإستقرار[1] وأصبحت تنعم بثراء ونشاط إقتصادي لا حدود له، وجعل من قرطبة عاصمة تمكنت من فرض وجودها بين عواصم العالم وأصبحت قبلة لكل باحث عن الإستقرار والعلم ورغد العيش، كما استطاع أيضا أن يوفق في شن معارك وحروب ناجحة ضد أعدائه وأن يقف ندا ضد التهديد الشيعي الفاطمي القادم من العدوة المغربية بل تعدى ذلك بنقل ميدان الحرب إلى عقر دارهم والتفوق عليهم بريا وبحريا[2].

بينما نجد في المقابل بعض المصادر كانت لها نظرة مغايرة ومختلفة عن الأندلس فترة الخلافة الأموية مثل الجزء الذي كتبه الرحالة إبن حوقل عن الأندلس من خلال كتابه صورة الأرض، وبصفة خاصة السلطة الحاكمة والنظام الحربي، مما يدفعنا لطرح العديد من التساؤلات عن الدوافع التي جعلت إبن حوقل ينظر إلى الأندلس بعين تختلف عن غيره، وعليه سنتطرق في هذا الفصل إلى أهم دوافع إبن حوقل وتحليلها وتبيان مدى صحة ما أورده عنها خاصة وأننا نجده يعترف بالقوة والإزدهار الذي وصلت إليه الأندلس في الجانبين الإقتصادي والإجتماعي.

1 أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، د ط، دار النهضة العربية، بيروت ، ص 237.

2 إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة، ط3، دار النهضة العربية، 1986،بيروت ،ص277.

أولا:السلطة الحاكمة والنظام الحربي في الأندلس من خلال صورة الأرض

تزامن دخول إبن حوقل إلى الأندلس في فترة حكم الخليفة عبد الرحمان الناصر أوائل سنة(337 هـ/948م) وعاش فيها إلى بدايات حكم الخليفة الحكم المستنصر والذي كانت فيه الأندلس على أوجها حضاريا وسياسيا وإجتماعيا وإقتصاديا ومن كل الجوانب حتى أصبحت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية من أعظم مدن العالم آنذاك، لكننا نجد إبن حوقل يقلل من شأن السلطة الحاكمة ويتهم المجتمع الأندلسي بالجبن ويتعجب من عدم طموحهم وصغر عقولهم بل ويستغرب كيف إستطاعت الأندلس المحافظة على إستقلالها ولم تضم إلى دار الخلافة من جديد [1]حيث يقول :"...ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسيّة والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال وعلم موالينا عليهم السلام..."[2].

أما الجيش الأندلسي والنظام الحربي فقد وصفه إبن حوقل بعيدا عن الفروسية والشجاعة والمروءة وحاول الإستهانة والإستخفاف والتقليل من عددهم والذي لا يتعدى حسب رأي إبن حوقل خمسة ألاف فارس ويرجع سبب ذلك لكونهم ليسوا في حاجة إليه مع الإكتفاء بسكان الثغور لمواجهة أي خطر بل يذكر أن غالبية حروبهم ومعاركهم كانت تتم عن طريق الحيلة والخداع والمكر.

حيث يقول إبن حوقل "...وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسيّة وقوانينها وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال فإنّ أكثر حروبهم تتصرّف على الكيد والحيلة وما رأيت ولا رأى غيرى بها إنسانا قطّ جرى على فرس فاره أو برذون هجين [3]ورجلاه في الركابين ولا يستطيعون ذلك ولا بلغنى عن أحد منهم لخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم وهم يفرسون على الأعراء من الخيل وما أطبقت قطّ جريدة عبد الرحمن بن محمّد ولا من سبقه من آله وآبائه على خمسة آلف فارس ممّن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه لأنّه مكفيّ المؤونة بأهل الثغور من أهل جزيرته ما ينوبه من كيد العدوّ ومن يجاوره من الروم ولا عدوّ عليه سواهم وقلّما

1 ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، تر: ذوقان قرقوط، مكتبة الحياة، بيروت (د ت)،ص 44.

2 إبن حوقل ، المصدر السابق ، ص 104.

3 برذون هجين: يُطلق على غير العربي من الخيل والبغال، من الفصيلة الخيلية، عظيم الخِلْقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر .والجمع :براذين.

يكترث بهم، وربّما طرقه في بعض الأحايين مراكب الروس والترك البجناكيّة وقوم في جملتهم من الصقالبة والبلغار فينكوا في أعماله وربّما انصرفوا خاسرين خائبين.."[1]

إن التحامل الواضح والإتهام الصريح الذي أطلقه إبن حوقل على حكام الأندلس وأهلها وفرسانها ونظامها الحربي، يفتح باب التأويلات و التشكيك في الأغراض التي دفعت بابن حوقل الدخول والتواجد بالأندلس، والتي كانت في الظاهر من أجل الإرتزاق والتجارة التي كان يجول العالم من أجلها وبدا هذا التحامل واضحا وجليا من خلال تلك الأوصاف التي وصفها وذكرها عن المجتمع الأندلسي و السلطة الحاكمة وعلى الفرسان والجيش الأندلسي وسنحاول في آخر هذا الفصل الوقوف والتطرق لأهم الأسباب والدوافع التي دفعت إبن حوقل لهذا الحكم المتحيز والسلبي تجاه أهل الأندلس وحكامها وجيشها. بينما نجد الإستثناء في وصفه لكل ما تعلق بالجانب الإقتصادي والإجتماعي من خلال ما وصلت له الاندلس من مجد وتفوق حضاري.

قام المؤرخ الأندلسي على إبن سعيد بالرد على إتهام إبن حوقل لحكام الأندلس ونظامها الحربي وتعجب من إزدرائه لأهل بلده ومحاولة الإستخفاف بهم وقد دون ذلك في كتابه حيث تعمّد ذكر قول إبن حوقل للرد عليه: "لم أر بدا من إثبات هذا الفصل وإن كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى، ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة، وليت شعري إذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب؟ وإني لأعجب منه إذ كان في زمان قد دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العبث في بلاد الشام حيث الجمهور والقبة العظمى، حتى أنهم دخلوا مدينة حلب، وما أدراك؟ وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة، إلى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ، ومن أعظم ذلك وأشده أنهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الإسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم، فيسبون ويأسرون، فلا تجتمع هم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك، وقد يستعين به بعضهم على بعض، فيتمكن من ذلك الداء الذي لا

1 إبن حوقل ، المصدر السابق ، ص ص 108 109.

يُطبّ، وقد كانت جزيرة الأندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك وراء ظهره، وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره وإنما كانت الفتنة بعد ذلك. الأعلام بينة والطريق واضح...." [1].

عندما تطرق إبن حوقل إلى الجيش الأندلسي صرح بأن عدد فرسان هذا الجيش لا يتعدى خمسة ألاف فارس، ومن الملاحظ أن هذا العدد قليل مقارنة بدولة بحجم الأندلس في عصرها الذهبي، حيث يذكر المؤرخ الأندلسي الشهير إبن حيان القرطبي أن ما تقدمه بعض كور الأندلس[2] من الفرسان ما يتجاوز ويفوق عدده ستة وعشرين ألف وثلاثة عشر ألف فارس هذا دون العاصمة قرطبة، كما ذكر إبن لسان الدين الخطيب صاحب كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) في معرض حديثه ووصفه للتنظيمات والترتيبات التي كانت قائمة لدى الجيش الأندلسي من كيفية خروجهم للغزو والجهاد وحتى رتبهم ومقدار مستحقاتهم المالية[3]، تصريحا ينافي ويعارض كلام إبن حوقل، وقد وضع إبن سعيد المغربي مقارنة بين الجيش الأندلسي وجيش الخلافة الإسلامية في المشرق في تلك الفترة عندما كانت تتعرض مدن الخلافة إلى التحرشات والهجومات من طرف الصليبين والبيزنطيين وتمكنوا من دخول حلب إلا أنه يلاحظ على كلام إبن سعيد نوعا من الحدة والتحمس الزائد المبالغ فيه في الرد على إبن حوقل .

ونحن نرى حسب إطلاعنا أن ما ذكره كل من إبن حيان الأندلسي وإبن الخطيب أقرب إلى الصواب مما قاله إبن حوقل بخصوص السلطة الأموية والنظام الحربي في الأندلس[4]. وبالتالي يكون ما كتبه إبن حوقل قد جانب الحقيقة والصواب، لأن الأندلس في عهد الناصر إستطاعت أن تفرض وجودها وهيمنتها داخليا وخارجيا وتمكن عبد الرحمان الناصر بفضل سياسته من إخماد والقضاء على تلك التمردات والتحرشات التي تظهر في كل مرة والتصدي لها،حيث تمكن من القضاء على أحد أهم الحركات المناوئة والإنفصالية داخليا وهي ثورة عمر بن حفصون[5]، والتي كادت أن تقضي على التواجد الأموي في الأندلس، حيث دامت ثورته وعاصرت أربعة حكام

1 أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تح: إحسان عباس ، مج 1، دار صادر، 1968 ، ص 212.

2 كور الأندلس : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع إسمها، ذلك إسم الكورة وقسمت الأندلس إداريا إلى كور (جمع كورة) على نحو ما كان متبع في مصر والشام في صدر الإسلام ، وكورة لفظه يونانية الأصل (Curia) وكانت تقابل كلمة Pagarchie في النظام البيزنطي ، أنظر سالم بن عبد الله الخلف ، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس ،ج 1، ص 318.

3 ذو النون طه ، صورة الأندلس من خلال صورة الأرض ، مجلة المؤرخ العربي ،ع 23 ، بغداد، 1983، ص ص110 111 .

4 نفسه ص 112.

5 عمر بن حفصون : هو عمر بن حفصون إبن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش القس، وينتمي عمر بن حفصون لأسرة من المولَّدين قوطيَّة الأصل، فجده الأعلى وقت الفتح هو القس ألفونسو، وأول من أسلم مِن أسرته هو جدُّه الرابع جعفر، ، أحد أشهر معارضي سُلطة الدولة الأمويَّة في الأندلس ، أنظر: طه عبد المقصود عبد الحميد عبية، موجز تاريخ الأندلس من الفتح إلى سقوط غرناطة، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ص80.

أمويين ،وتم القضاء عليها سنة (306 هـ/919م)[1]، كما قام بالتصدي لكل خطر خارجي محتمل وذلك بتدعيم جيش الثغور وتأمين جيش الحدود مع الممالك المسيحية في الشمال، ومن أشهر قواد الثغور في عهد الأمويين غالب بن عبد الرحمن الناصري[2]، فهو الذي في سنة (335 هـ/946م) قام بترميم حصون مدينة سالم بعد أن خربت، وتمكن في سنة (342هـ/953م) من الزحف على إحدى الممالك المسيحية المتمردة في الشمال وهي مملكة قشتالة، وانتصر عليهم، واستمر في قيادة الثغر الأوسط إلى زمن الحكم المستنصر(350هـ/367هـ)، ولما علم عبد الرحمان الناصر بأهمية المدن العسكرية والحصون والتي تمثل سدا منيعا ضد أي خطر محتمل إنتشرت وكثرت هذه المدن العسكرية في عهده ونذكر منها المدينة التي بنيت عام (318هـ/930م) بالقرب من مدينة طليطلة وسماها مدينة الفتح، وكانت هذه المدن العسكرية تضم مختلف تنظيمات الجيش من فرسان وقواد وتكون تحت إدارة أحد الوزراء[3].

كذلك لعبت هذه المدن دورا مهما في صد الخطر القادم من العدوة المغربية ومحاولة التوسع الفاطمي وذلك بتقديم المساعدات والدعم لبعض الأمراء في العدوة المغربية مثل موسى بن مكناس أمير الأدارسة في فاس ومحمد بن خزر الزناتي[4]، وتوطدت علاقات الدولة الأموية في عهد عبد الرحمان الناصر مع الدولة البيزنطية خاصة مع الإمبراطور قسطنطين السابع[5]، فقد كانت علاقات جيدة ويتضح ذلك من خلال الإنسجام الواضح في شتى المجالات حتى الحربية منها، وذلك من أجل مواجهة الخطر الفاطمي القادم من الجنوب حيث قام الناصر بإنشاء دور لصناعة السفن الحربية في المدن الساحلية مثل المرية وطرطوشة والجزيرة الخضراء وتمكن من تجهيز أسطول بحري يضم مئة وعشرين مركب وبتعداد سبعة آلاف رجل ومقاتل[6].

خلاصة ما يمكن قوله إن عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر(300هـ- 350هـ) والذي دام خمسين سنة إستطاع خلالها هذا الأخير أن يرجع للأندلس هيبتها داخليا وخارجيا وتمكن من توحيد البلاد وتكوين جيش قوي قضى به على التمردات والحركات المناوئة في الداخل وصد كل خطر خارجي سواء في البر أو في البحر وشهدت الأندلس على عهده إستقرارا سياسيا وعسكريا وحتى مذهبي، إستمال به العديد من المراسلات والبعثات

1 إبراهيم بيضون ، ص ص 280 281.

2 غالب الناصري : ويعرف بذو السيفين أبو تمام غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب مدينة سالم والثغر الأدنى وشيخ موالي بني أمية وفارس الأندلس

3 سالم بن عبد الله الخلف ، ص 640

4 مجهول ، مفاخر البربر ، تح:عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، المغرب، 2005 ، ص 94

5 قسطنطين السابع :وهو إبن الإمبراطور البيزنطي ليو السادس الحكيم عاش لمدة 54 سنة، وحكم الإمبراطورية البيزنطية منذ سنة 913م .

6 إبن حيان القرطبي، المقتبس ،ج5 ، المعهد الإسباني للثقافة كلية الآداب ، الرباط، مدريد، 1989، ص ص 312 313

الدبلوماسية لطلب الود والصلح والدعم من السلطة الأموية في الأندلس التي وصلت في هذا العهد إلى ذروة القوة والإستقرار بفضل قوة شخصيته .

يقول محمد عبد الله عنان نقلا عن المستشرق دوزي ".. إن ذلك الرجل الحكيم النابه، الذي إستأثر بمقاليد الحكم، وأسس وحدة الأمة، ووحدة السلطة معاً، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي، والذي إتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى.."[1].

1 عنان محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس، ج1، ط 4، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1997 ، ص463.

ثانيا: الحياة الإجتماعية والإقتصادية في الأندلس من خلال صورة الأرض

وهنا يستوقفنا كلام إبن حوقل عندما يذكر الحياة الإجتماعية والإقتصادية في الأندلس والمناقض تماما لكلامه عندما تطرق للجانبين الإداري والحربي، ويتضح ذلك من خلال الإشادة بما وصلت إليه البلاد فترة الخلافة الأموية من حالة الرخاء وسعة العيش وعمارة بيت المال والرقي والتقدم، مقدما بذلك تفاصيل مهمة عن حالة المجتمع الأندلسي في تلك الفترة.

عندما تطرق إبن حوقل إلى الجانب الإجتماعي وصف حالة الناس المعيشية التي كانت سائدة حيث عم الرخص في البلاد وتوفرت وكثرت السلع وأصبح المجتمع الأندلسي في سعة من العيش والتنعم بخيرات البلد على مختلف طبقات المجتمع سواء الخاصة أو العامة وأرجع إبن حوقل ذلك لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم وقلة التكاليف لدى الحكام وعدم خشيته من عدو ينصب لهلكته مع وفرة الأموال وعمارة الخزائن وكثرة جبايات البلد كل ذلك إنعكس بشكل إيجابي على البلد فارتفع المستوى المعيشي للبلد وزاد من حالة الرخاء والرفاه لدى الناس[1]،ومن العادات الإجتماعية التي كانت تدل على سعة العيش والرزق مما ذكر إبن حوقل عن أهل قرطبة الذين كانوا يركبون الحيوانات الفارهة ويتفاخرون بها لاسيما البغال الممتازة المجلوبة من مدينة ميورقة ولا يذهب أحدهم إلى السوق إلا راكبا على دابة فارهة.[2]

كما تحدث إبن حوقل عن العمران وكثرة البنايات والمرافق الضرورية للحياة الإجتماعية والتي كانت موجودة في شتى المدن التابعة للأندلس من عمارات وأسواق وحمامات ومساجد، ثم ينفرد إبن حوقل بوصف العاصمة قرطبة والتي شبهها بعاصمة الخلافة العباسية بغداد من كثرة المرافق الموجودة فيها والتي كانت مرتبة ومنظمة وذكر المدينة الجديدة الزهراء[3] التي تقع بالقرب من العاصمة قرطبة والتي دام بناءها قرابة أربعين سنة، ومما يعزز الصلة القوية بين السلطة والمجتمع الأندلسي أنه عند إكتمال بناء مدينة الزهراء أمر الخليفة بأن ينادى في الأسواق والأماكن العامة في جميع مناطق الأندلس أنه من يريد البناء بالقرب من مدينة الزهراء له من المعونة أربعمئة درهم فكثرت البنايات المجاورة للزهراء وكادت أن تتصل بمدينة قرطبة ويذكر إبن حوقل أنه بعد الإنتقال إلى مقر الحكم الجديد في الزهراء

1 إبن حوقل ،المصدر السابق ،ص109.

2 نفسه ،ص 109.

3 الزهراء:من أهم آثار عبد الرحمن الناصر المعمارية، بنيت على مسافة 08 كم شمال غربي العاصمة قرطبة على سفح جبل العروس ، أنظر المقري التلمساني: نفح الطيب، مج1، ص ص 523 524.

أعيد مرة أخرى إلى مدينة قرطبة وذلك بسبب التشاؤم من كثرة موت الرجال وكثرة سرقة الذخائر الثمينة التي حلت بالعاصمة الجديدة مدينة الزهراء .[1]

كذلك تحدث إبن حوقل عن الإزدهار الإقتصادي الذي شهدته الأندلس عندما تطرق لذكر إحصائية مالية مهمة وناذرة عن واردات الأموال في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر، وحاصل لديه مما جمعه من أموال ما لم ينقص عن مائتي ألف دينار ووصل سنة (340 هـ /951م) إلى قرابة عشرين مليون دينار، دون ما في خزائنه من المتاع والحلي المصوغ وآلة المراكب، وما يتحمل به الملوك من القنية المصوغة، واستمرت مداخيل الأموال من جبايات وضرائب إلى أن تضاعفت في عهد إبنه الحكم المستنصر ووصلت إلى أكثر من أربعين مليون دينار[2] ولا يمكن مقارنتها إلا بتلك التي كانت موجودة في المشرق لدى الحمدانيين بالحي الأرستقراطي بالرصافة في مدينة حلب[3]، وكانت خزائن الدولة الأموية مقسمة إلى ثلاث أنواع:

-خزانة بيت مال المسلمين .

-الخزانة الخاصة بالأسرة الأموية في الأندلس .

-الخزانة العامة للدولة.

وكانت تمتاز هذه الخزائن بتسيير محكم وبنظام دقيق من خلال ضبط وتسجيل الواردات والمصروفات ومختلف النفقات.[4]

وذكر إبن حوقل التبادل التجاري الذي كان قائما بين الأندلس مع كافة البلدان خاصة الإسلامية، من خلال وصفه للطرق والمسالك التي كانت تنطلق من قرطبة ومن كافة المدن، ويذكر أهم السلع والبضائع والمنتجات التي كانت تصدر ناحية الشرق خاصة مصر مثل الملابس المطرزة والأصواف والأصباغ واللبود المغربية.[5]

1 إبن حوقل، المصدر السابق ، ص107.
2 نفسه، ص 115.
3 بروفنسال ، المصدر السابق ، ص 45.
4 سالم بن عبد الله الخلف ، مرجع سابق ، ص 362.
5 اللبود المغربية، وهو بساط مصنوع من الصوف الممتاز .

يقول إبن حوقل:"...ولهم من الصوف والأصباغ فيه وفيما يعانون صبغة بدائع بحشائش تختص بالأندلس، تضع بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقزّ ، ويجلب منها الديباج، ولم يساومهم في أعمالهم لبودهم أهل بلد على وجه الأرض، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبد منها بالخمسين والستين دينارا..." [1]

كما تحدث بصفة خاصة عن ثروة البغال التي كانت تجلب من مدينة ميورقة والتي كانت تشتهر بتربية المواشي وذلك لأنها معدومة الجوائح وقليلة الآفات وليس فيها عاهة ولا وحش يؤذيهم أما أسعار البغال فتجاوزت خمسمائة دينار وكانت تمتاز بحسن السير والمشي مع عظم الخلق والألوان الصافية والشعور الدهنية والصحة على مدى الأيام والصبر على الكد والعسف.[2]

ذكر إبن حوقل كذلك تجارة الرقيق والعبيد وكانت الأندلس قبلة لمعظم الجواري والعبيد والخدم خاصة ما يعرف بالصقالبة، والذين كان لهم دور هام في الحياة الإجتماعية والحياة السياسية خاصة في عهد الحكم المستنصر، وفي أحداث الأندلس إلى غاية سقوط الخلافة الأموية عام (422هـ / 1030 م) والذين جيء بهم في الغالب من طرف القبائل الجرمانية وجلبهم التجار اليهود وأشار إبن حوقل إلى مصدر آخر للصقالبة من مناطق البحر الأسود وجليقية وإفرنجه. وللأندلس دور مهم في تجارة الصقالبة الخصيان[3]وظهر ذلك واضحا في التبادل التجاري للأندلس حيث كانت أسواقها تعرف رواجا في هذا المجال على عهد الدولة الأموية، كما كانت الموانئ الأندلسية مراكز مهمة بخصوص هذا النوع من التجارة ، ويذهب إبن حوقل إلى أبعد من ذلك بقوله: "وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون، ورغم صفة المبالغة الموجودة في هذا النص في كثرة تجارة الرقيق والعبيد الصقالبة من طرف الأندلسيين إلا أن ابن حوقل كان محقا في اتساع تجارتهم للرقيق وهو الذي اطلع من خلال تجواله في تلك الأماكن على واقع الأسواق الأندلسية وسلعها بضائعها التجارية وهو الخبير في ميدان التجارة[4].

1 إبن حوقل ، المصدر السابق ، ص 109 .

2 نفسه ، ص110.

3 الصقالبة الخصيان :هم جزء من المجتمع الأندلسي أشهرهم (فائق وجؤذر) كانوا من طبقة العبيد والخدم يمثلون أسواق النخاسة وموجودون في قصور الملوك والأمراء والخلفاء والنبلاء ورجال الدين وأصحاب الأموال والمزارعين وهم الذين أقتطع جزء مهم من أعضاءهم الجسدية من طرف التجار اليهود ويتم إستغلال هؤلاء في القصور كخدم ذوي ملامح ومحاسن عند الأمراء والأغنياء كرجال يمتازون بالجمال والبراعة والقوة والإنصراف إلى الخدمة دون غيرها من شؤون الحياة الأخرى.أنظر :محمد عبدالله عنان ،تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1970، ص 192.

4 إبن حوقل ، المصدر السابق ،ص 106.

لقد أنصف إبن حوقل إلى حد بعيد فيما نقله ودونه عن الجانب الإجتماعي والإقتصادي للمجتمع الأندلسي في عهد الدولة الأموية، ويعد ما كتبه إبن حوقل مصدرا هاما لكل باحث في الحياة الإقتصادية والإجتماعية بذكره مختلف الموارد التي ساهمت في الإزدهار الإقتصادي للأندلس وانعكست على الحياة العامة للمجتمع الأندلسي في تلك الفترة.

ثالثا: دوافع النظرة السلبية لابن حوقل حول السلطة والنظام الحربي الأندلسي

إن التحامل الواضح والإتهامات وجهها إبن حوقل لأهل الأندلس وسلطتها الحاكمة، أرجعه البعض إلى ميوله السياسية وتعاطفه مع الدولة الفاطمية، بل يذكر البعض أنه تشيع وانتسب للفاطميين وناصرهم وأصبح داعية لهم[1]، وكانت المعلومات التي نقلها بخصوص الأندلس بمثابة التقرير المفصل الذي رفعه إلى حكام الدولة الفاطمية، من أجل إغرائهم لغزو الأندلس.

ويتضح هذا عند البحث في كتاب (صورة الأرض) إذ نجد بعض العبارات التي تشير إلى ذلك التعاطف مع الفاطميين الذي أشرنا له سابقا، فعندما دخل إبن حوقل مدينة المهدية وتحدث عن حركة صاحب الحمار أبو يزيد بن مخلد بن كيداد قال "..وكان أول نحس أظلها أبو يزيد مخلد بن كيداد وخروجه بالمغرب على أهلها وانهالت المناحس عليها إلى الآن وقد بقي بها بعض رمق ..."[2] ويقول في موضع آخر " وكان أبو يزيد مخلد بن كيداد الإباضي الخارج على القائم محمّد بن عبيد الله عليه السلام من أهل سماطة ومن فراعنتهم قتل خليلا صاحب ديوان المغرب وميسورا الخادم صاحب جيش المغرب واتّسق له من الظلم والعدوان ما جعل الله بغيه نكالا عليه..."[3] ومن المعلوم أن أبي يزيد مخلد بن كيداد كانت له علاقات جيدة مع عبد الرحمان الناصر حاكم الأندلس وكان يدعوا له وتبادل معه الرسائل وكان يخبره بكل أخبار المغرب وحربه مع الفاطميين[4].

وعندما يذكر حكام الدولية العبيدية الفاطمية يرافقها بعبارات التشريف مثل:

- المنصور عليه السلام.
- مولانا الأمير المنصور بإذن الله.
- موالينا عليهم السلام.
- القائم محمد بن عبد الله عليه السلام.

1 شوقي ضيف ، ص12.

2 إبن حوقل ، ص ص 73 74.

3 نفسه،ص 94.

4 ليلى أحمد نجار ، العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبد الرحمان الناصر، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة،(1402هـ/1403هـ،1982م/1983م) ص 203.

بينما نجده متعصبا وحاقدا على الأمويين وسياستهم وحضارتهم وحكامهم فعبد الرحمن الناصر أشهر حكام الأندلس، لا ينال عنده لا لقب أمير ولا ملك ولا خليفة ولا أي شيء من ألفاظ التشريف، وقلل من شأنه كأنه أقل من رجل عادي في نظره وعند دخوله إلى الأندلس وصفه بالقيم بها، حيث يقول إبن حوقل :"ودخلتها في أول سنة سبع ثلاثين وثلاثمائة والقيم بها أبو المطرف عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان بن معوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ..."[1]

كل هذه العبارات لم تخفي ميول وتعاطف إبن حوقل مع الدولة الفاطمية ومن غير المستبعد أن يكون تواجده بالأندلس إضافة إلى التجارة والإرتزاق من أجل مهمة نقل تفاصيل ومعلومات هامة عن المجتمع الأندلسي ونظامها الحربي والإداري لحكام الدولة الفاطمية بالمغرب.

وقد ذهب إلى تأييد هذا الرأي كل من:

- كارتشكوفسكي صاحب كتاب (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) حيث يقول:"..... وتبرز الميول السياسية لابن حوقل من وقت لآخر جلية للعيان ومن الطريف في هذا الشأن موقفه من أمويي الأندلس فهو يقدم لنا في مصنفه صورة للأندلس من أدق الصور في العصر الأموي ويرى أن ابن حوقل جاسوسا للفاطميين بلا ريب ."[2]
- ويذكر زكي محمد حسن نقلا عن المستشرق الهولندي دوزي في كتابه (تاريخ إسلام إسبانيا) أن إبن حوقل كان عيناً للفاطميين ويعمل لحسابهم في الأندلس، ولا شك أن يكون قد نال حظوتهم عندما كان بينهم في بلاد المغرب، فسهلوا له شؤون رحلته وتجارته؛ وقد تمخضت هذه العلاقة عن تبادل الثقة، فوجدوا فيه خير مثال للدعاية، لمذهبهم الفاطمي.[3]
- ويقول محمود علي مكي في كتابه (التشيع في الأندلس) "... إن الإهتمام المبالغ فيه من طرف إبن حوقل وذلك من خلال تسجيل الموارد المالية، والأنشطة الإقتصادية ووصفه للطرق والمسالك البحرية والبرية، ثم يتطرق لوصف جهاز الحكم والجيش الأندلسي محاولة منه لإقناع الفاطميين بغزو الأندلس...".[4]

1 إبن حوقل ،المصدر السابق ،ص 104.

2 كراتشكوفسكي، مرجع سابق ، ص 204.

3 زكي محمد حسن ، مرجع سابق ، ص 41 .

4 محمود علي مكي ، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ص 52 .

أما ليفي بروفنسال صاحب كتاب (حضارة العرب في الأندلس)، يذكر أنه من المحتمل أن يكون إبن حوقل عينا للعباسيين أو الفاطميين لأنه زار الأندلس في عهد الناصر وعاش فيها.[1]

والقول الراجح أن إبن حوقل كان متعاطفا مع الفاطميين وموالیا لهم ومؤيدا لسياستهم ومذهبهم، لأنهم عند قيام دعوتهم عملوا على نشر جواسيسهم في شتى الأقاليم الإسلامية، وراء التستر من أجل التجارة أو طلب العلم أو السياحة الصوفية، ولكن الغاية من ذلك الإستطلاع على أحوال تلك البلدان ومعرفة أدق التفاصيل من مداخيل البلد ودراسة نظمها السياسية والإقتصادية والدينية ومناطق الضعف فيها، وأهم الدعاة الذين تواجدوا في الأندلس أبو يسر الرياضي وإبن هارون البغدادي، ولكن نجاحهم كان محدودا جدا وذلك بسبب قوة السلطة الأموية، وتمسك أهل البلد بمذهبهم السني، ولم يتمكنوا من ضم إلا بعض رجال الفكر والتصوف[2]، وكذلك عمر بن حفصون الذي كان يدعوا للخليفة عبيد الله المهدي في منابر مساجده، والذي أمده بالذخائر والسلاح القادمة من المغرب، مع إرسال داعيين يقومان بتحريضه بالتمسك والطاعة والولاء للفاطميين، إلا أن إبن حفصون كان غرضه من الولاء للخليفة الفاطمي نكاية في الأمويين ليس إلا، ودليل ذلك عند إرجاعه للداعيين الفاطميين إلى المغرب.[3]

إن إنفراد إبن حوقل برأيه المخالف غن غيره من الرحالة والجغرافيين فيما يخص جانبي السلطة والجيش الأندلسي خلال العهد الأموي، يمكن إرجاعه إلى دوافع ذاتية وأخرى موضوعية كانت ظاهرة في كتابه صورة الأرض[4] حيث نستنتجها من النصين التالين:

النص الأول الذي برزت فيه موضوعية إبن حوقل كان في مقدمة كتابه والذي يقول فيه "كان ممّا حضّنى على تأليفه وحثّنى على تصنيفه وجذبنى الى رسمه أنّى لم أزل فى حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك متطلّعا إلى كيفيّة البين بين الممالك في السير والحقائق وتباينهم فى المذاهب والطرائق وكمّيّة وقوع ذلك فى الهمم والرسوم والمعارف والعلوم والخصوص والعموم وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة فلم أقرأ فى المسالك كتابا مقنعا وما رأيت فيها رسما متبعا فدعاني ذلك الى تأليف هذا الكتاب واستنطاقي فيه وجوها من القول

1 ليفي بروفنسال ، مرجع سابق ص 44.
2 محمود علي مكي ، مرجع سابق ، ص ص 24 ،28 .
3 احمد مختار العبادي ،مرجع سابق، ص 236.
4 ناصر عبد الرزاق الموافي ، مرجع سابق ،ص 160.

والخطاب وأعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر والشهوة لبلوغ الوطر ..."[1]

أما النص الثاني والذي ظهرت فيه ذاتية إبن حوقل يقول فيه "وكان أكثر ما حداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة أنّ كنت في حال الحداثة شغفا بأخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار كثير الإستعلام والإستخبار لمسافرة النواحي ووكلاء التّجار وقرأت الكتب المؤلّفة فيها وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنّه صادقا وأخاله بما أسأله عنه خبيرا عالما فأجد عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه وقد حفظت نسقه وتأمّلت طرقه ووصفه أكثر ذلك باطلا وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلا ثمّ أعاوده الخبر الذي ألتسمه منه والذكر ليسمع الذي إستوصفته وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسويّة فتتنافر الأقوال وتتنافى الحكايات وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسّه في نفسي بالقوّة على الأسفار وركوب الأخطار ومحبّة تصوير المدن وكيفيّة مواقع الأمصار وتجاور الأقاليم والأصقاع، وكان لا يفارقني كتاب إبن خرداذبه وكتاب الجيهانيّ وتذكرة أبي الفرج قدامة بن جعفر، وإذا الكتابان الأوّلان قد لزمني أن أستغفر الله من حملهما وإشتغالي بهما عما يلزمني من توخّي العلوم النافعة والسنن الواجبة، ولقيت أبا إسحاق الفارسي وقد صوّر هذه الصورة لأرض السند فخلطها وصوّر فارس فجوّدها وكنت قد صوّرت أذربيجان التي في هذه الصفحة فاستحسنها والجزيرة فاستجادها وأخرج التي لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال قد نظرت في مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابي"[2]

فهنا نجد إبن حوقل في هذا النص قد أشار إلى تعارض أقوال الجغرافيين في وصفهم وتصويرهم للأمصار والبلدان ،مع كثرة الخطأ وفساد الصورة وقد ضرب مثلا بمصر والمغرب ،بينما عند وصفه للأندلس في كتابه (صورة الأرض) في ميداني السلطة والجيش ،شذ رأيه عن بقية الرحالة والجغرافيين وواقع الأندلس المزدهر في تلك الفترة وهذا ما يظهر بوضوح دوافعه الذاتية.

1 إبن حوقل ، مصدر سابق ، ص 10.

2 إبن حوقل، مصدر سابق ، ص ص 283 284.

خاتمة

لقد إمتازت كتب ومؤلفات الرحلات والجغرافية لدى العرب في القرن الرابع الهجري بموسوعية المعلومات الواردة فيها، والتي شملت معلومات قيمة ودقيقة في شتى المجالات الجغرافية ،والتاريخية والسياسية والحضارية والدينية والإجتماعية ،وذلك إعتمادا على المشاهدة والملاحظة والمعاينة والإستقصاء، و يُعد كتاب صورة الأرض لابن حوقل من أهم النصوص المصدرية باعتباره من المصادر الجغرافية المهمة في العصر الوسيط التي قدمت معطيات مهمة عن الأقاليم الإسلامية خلال القرن الرابع الهجري (10م)، ولم يكتف إبن حوقل بما ورد عند من سبقه من جغرافيين ورحالة، بل إنه نزل إلى الميدان، وقام برحلة طويلة حول البلدان إستمرت أزيد من ثلاثين عاما بين مختلف الأقطار الإسلامية، وقام بوصف المناطق التي زارها وصفاً مفصلاً بناءا على مشاهداته وإعتمادا على مجموعة مصادر مختلفة.

إتخذ إبن حوقل من التجارة وسيلة لكي يجوب العالم، لكن البعض حمل عليه تهمة التجسس لصالح الفاطميين، فقد كان يقوم بجمع المعلومات عن المناطق التي يزورها، وتزامن ذلك مع ظهور وإنتشار المذهب الشيعي في بلاد المغرب ،خاصة عندما إرتحل إلى الأندلس، وعاش فيها فترة من الزمن في عهد الخلافة الأموية، غير أن ذلك لم يمنع إبن حوقل من تقديم إشارات ومعلومات إنفرد بها عن غيره من الرحالة والجغرافيين، كما هو الشأن عندما قدم وصفاً لبلاد الأندلس و لمسالكها، وطرقها، ومدنها، موضحا أهميتها الإقتصادية والتجارية وأسهب في تعداد ثرواتها. كما أشار إلى بعض خصائصها الطبيعية والبشرية.

إن إلصاق تهمة تجسس إبن حوقل لصالح الفاطميين والتي أوردتها بعض المصادر والمراجع ،جاءت من أجل التقليل مما تركه هذا الأخير من مادة علمية مصدرية هامة في تاريخ الشعوب، وحضارتها وجعلوا رحلته ذات أبعاد سياسية ومذهبية، ولم تكن هناك أدلة واضحة تدل على البعد السياسي والمذهبي الذي جاء من أجله إبن حوقل إلى الأندلس، لأن رحلته في الغالب كانت للتجارة والإرتزاق ولم يجمل دخوله للأندلس طابع التستر، فقد كانت الأندلس في العهد الأموي خاصة فترة حكم عبد الرحمان الناصر قبلة لجميع الناس من مختلف مناطق العالم وكانت مفتوحة للجميع .

وتبقى الصورة التي نقلها إبن حوقل عن المجتمع الأندلسي هي إحدى الصور العديدة، التي كانت موجودة في المصادر آنذاك، ولم تكن تعني بالضرورة الصورة الواقعية ، لأنه غالبا ما تحمل هذه المصادر نصوصا دعائية من أجل رفع وتعظيم جهة ما على حساب جهة أخرى .

قائمة الملاحق

الملحق رقم (1): خريطة الأقاليم عند ابن حوقل

الملحق رقم (2): خريطة أهم المدن التي زارها ابن حوقل

الملحق رقم (3): مقاطع رحلة ابن حوقل

الملحق رقم (4):صورة ديار العرب والعراق للمقدسي

الملحق رقم (5):صورة للعالم _الاصطخري.

الملحق رقم (1): خريطة الأقاليم عند ابن حوقل

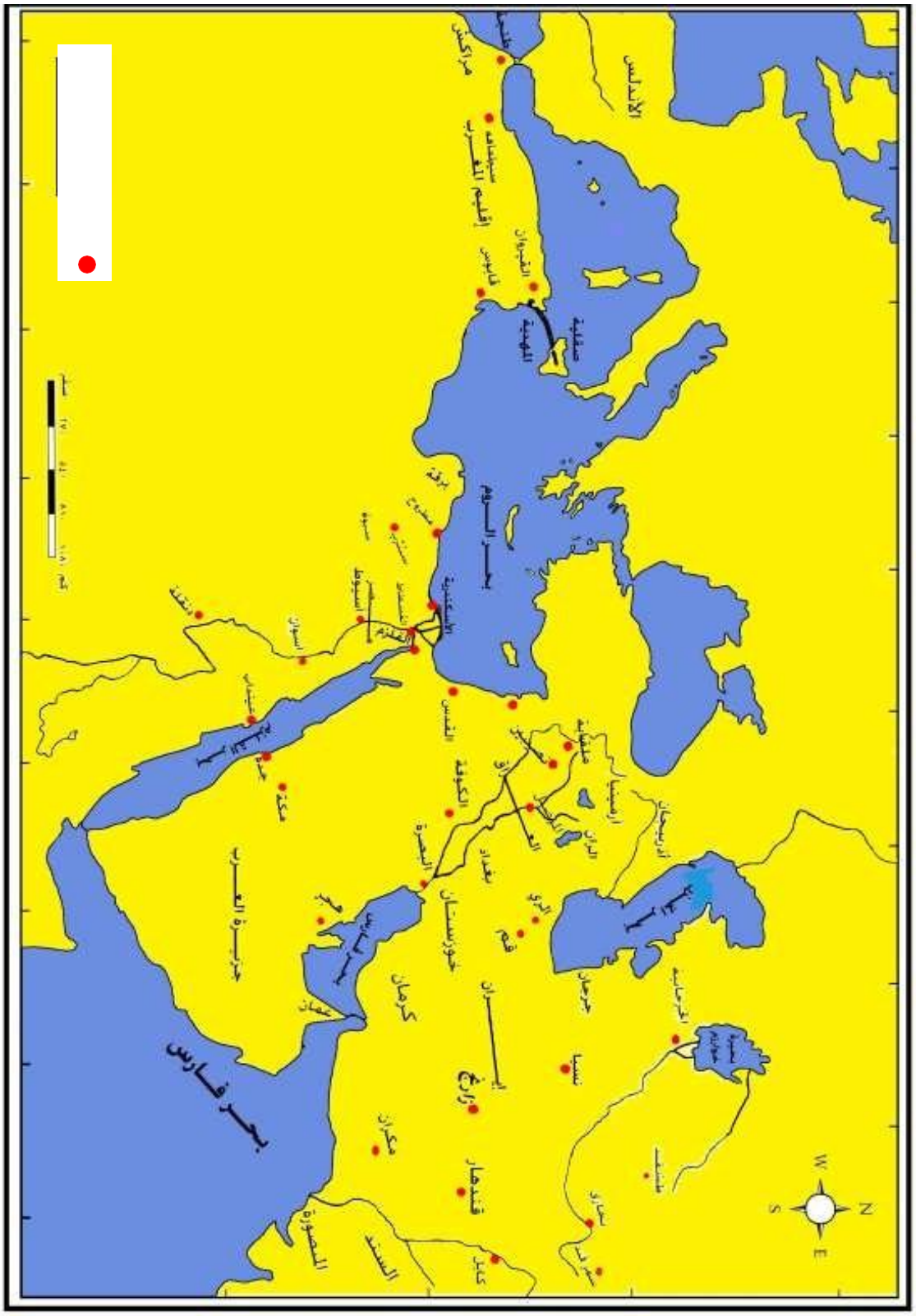

حسام نجم الدين عبد الشمري ،المرجع السابق،ص،30.

الملحق رقم (2):خريطة أهم المدن التي زارها ابن حوقل

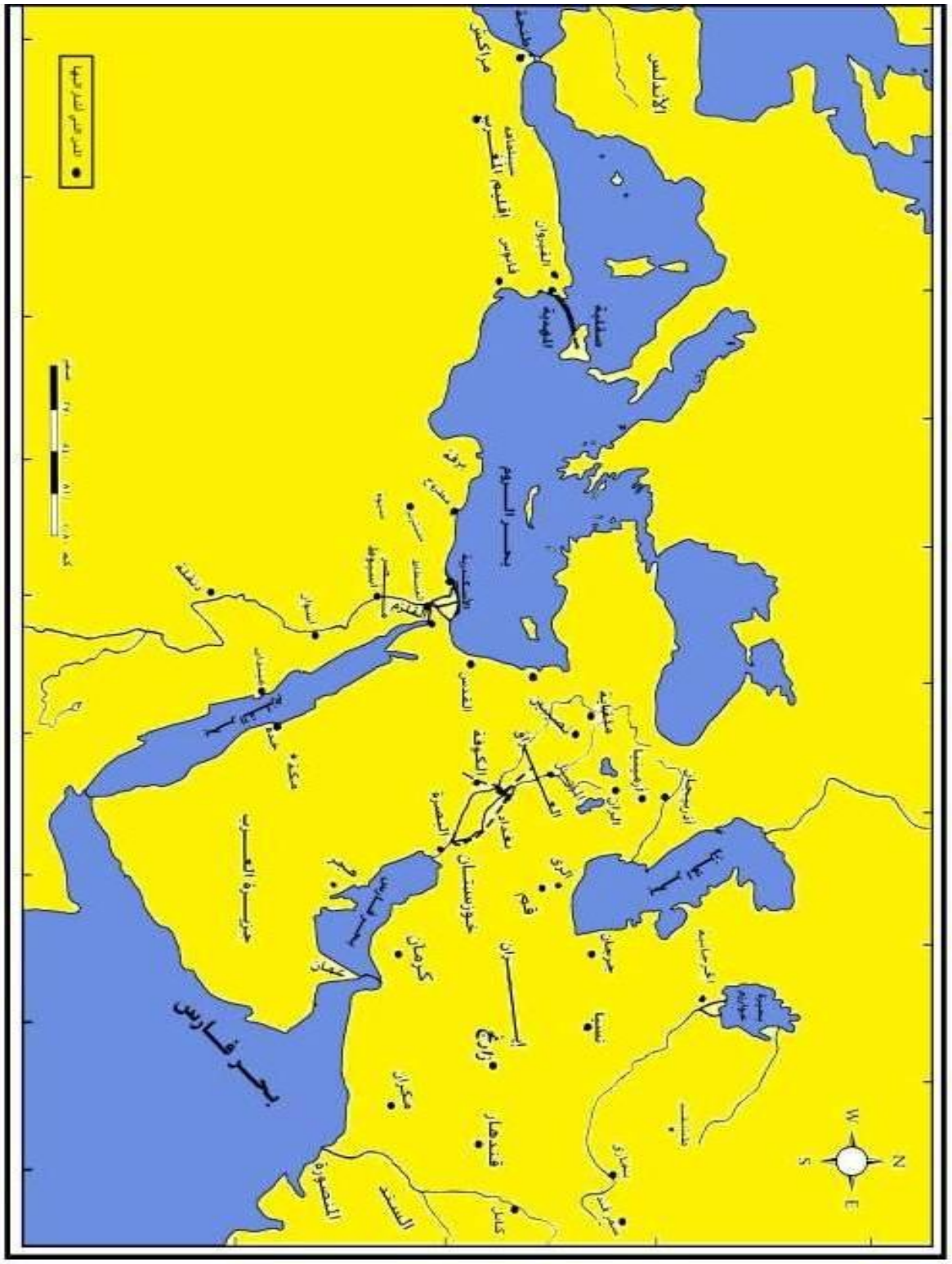

حسام نجم الدين عبد الشمري ،المرجع السابق،ص157.

الملحق رقم (3):مخطط رحلة ابن حوقل

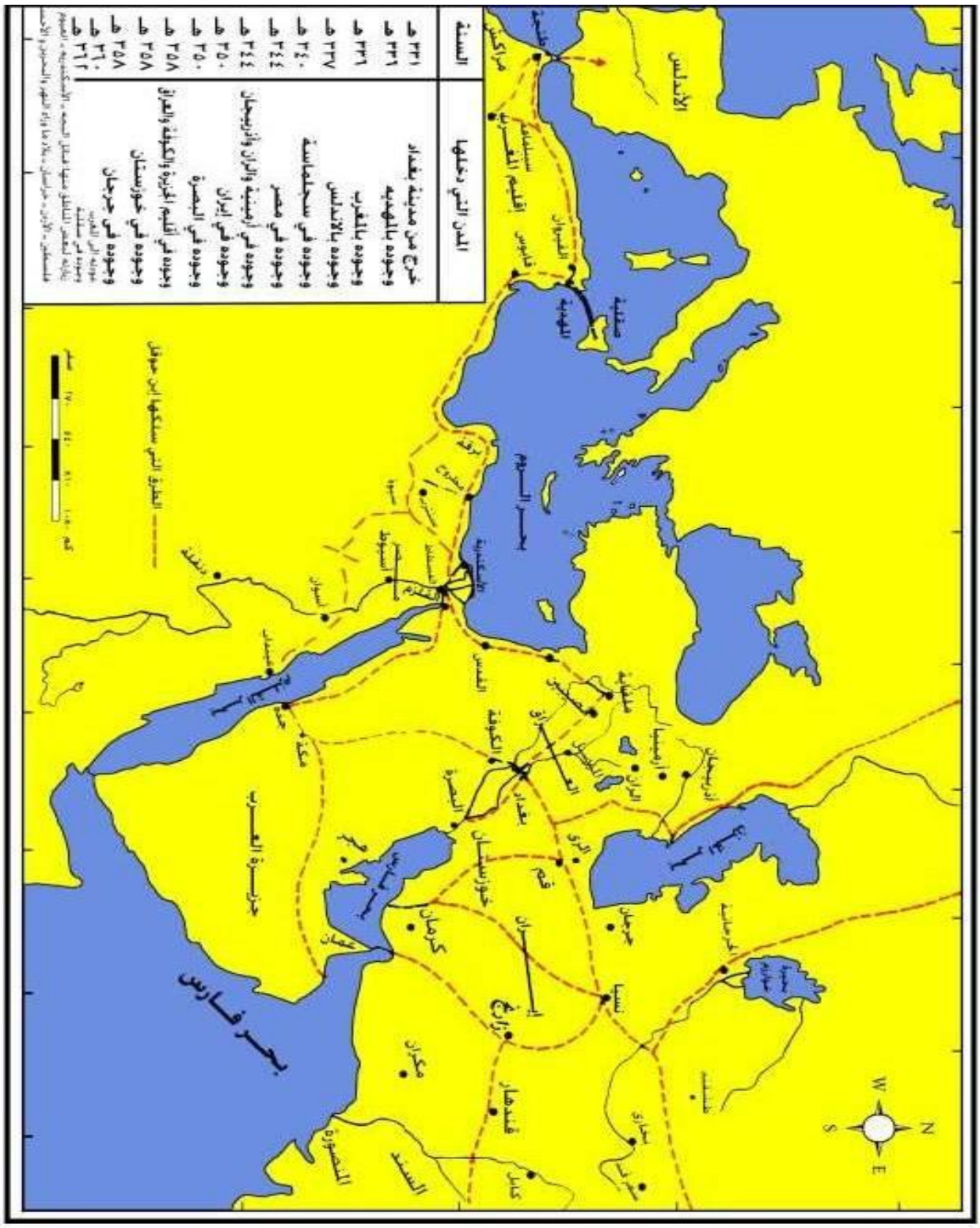

حسام نجم الدين عبد الشمري ،المرجع السابق،ص،45.

الملحق رقم (4):صورة ديار العرب والعراق للمقدسي

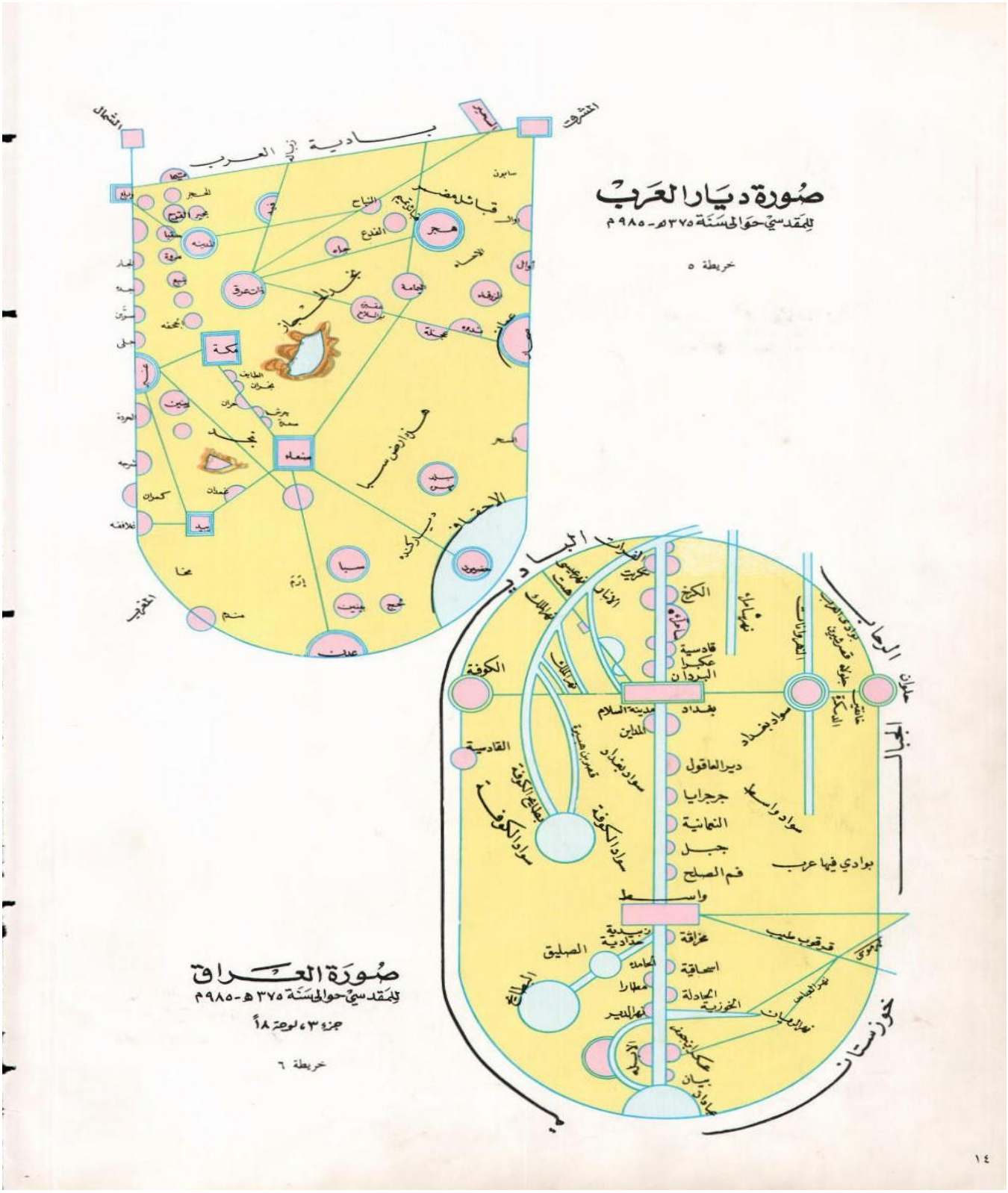

حسين مؤنس ،أطلس تاريخ الإسلام،ط1،الزهراء للإعلام العربي،القاهرة،1987،ص 14.

الملحق رقم (5):صورة للعالم _الاصطخري.

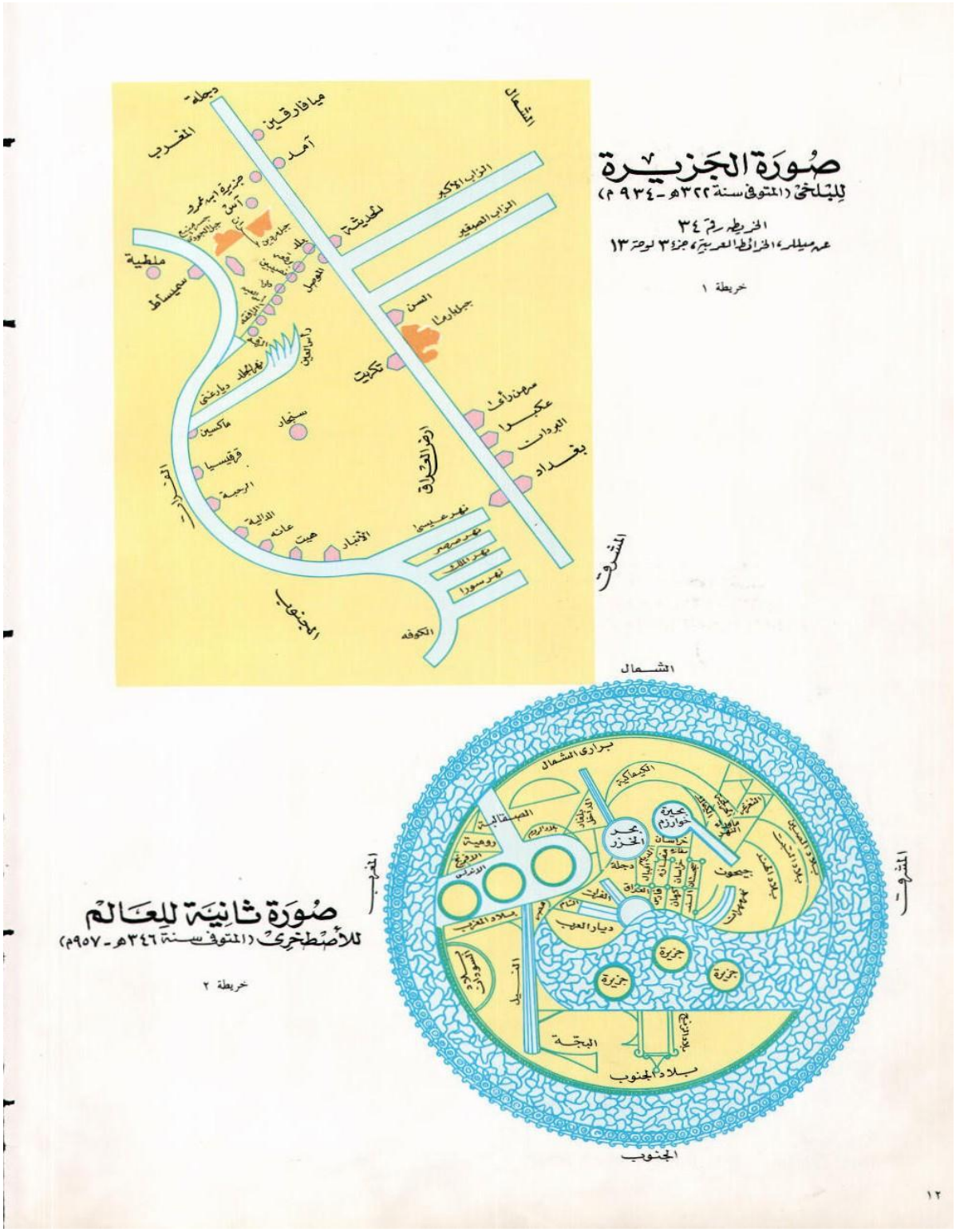

حسين مؤنس ،المرجع السابق،ص12.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

1. إبن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، راجعه سهيل زكار، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2006 .
2. إبن حوقل أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، ط4 ، مكتبة الحياة، بيروت، 1992.
3. إبن حوقل أبو القاسم محمد بن علي ، صورة الأرض ، ط2، طبعة ليدن 1873
4. إبن سعيد المغربي، كتاب الجغرافياط1،تح: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر،بيروت، 1970.
5. الإصطخري أبو إسحاق بن محمد، المسالك والممالك، مطبعة بريل،ليدن،هولندا،1927.
6. إبن حيان القرطبي،المقتبس،المعهد الاسباني للثقافة كلية الآداب ، الرباط، مدريد، 1989.
7. الزركلي خير الدين،الأعلام، ط 11،دار العلم للملايين،بيروت، 2002.
8. المقدسي شمس الدين أبي عبد الله محمد ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مكتبة مدبولي،القاهرة، ط3 ، 1999 .
9. المسعودي أبو الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية،بيروت.
10. مجهول، مفاخر البر،تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق،المغرب،2005.
11. – أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تح: إحسان عباس ، دار صادر، 1968

ثانيا: المراجع

1. أحمد أبو سعيد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، دار الشرق بيروت،1961.
2. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة،ط3، دار النهضة العربية، 1986.
3. إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر.

4. أندريه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية، حتى منتصف القرن الحادي عشر، قسمان، ترجمة إبراهيم خوري (منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1983).

5. ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، تر: ذوقان قرقوط، مكتبة الحياة، بيروت (د ت)

6. إسماعيل باش البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين،مج، وكالة المعارف الجليلة،إستانبول،1955.

7. جمال أفندي، الجغرافيا عند المسلمين،ط1 دار الكتاب اللبناني،1982.

8. جورج غريب، أدب الرحلة تاريخه وأعلامه،ط3، دار الثقافة،بيروت،1979.

9. بن قربة صالح. تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ،الجزائر،2007.

10. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي،بيروت،1999.

11. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي،ط2 الدار العربية للكتاب،القاهرة،2002.

12. فواز الشعار، الأدب العربي، الموسوعة الثقافية العامة،

13. زكي محمد محاسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي،بيروت، 1980.

14. إغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة 1963.

15. كمال بن محمد الريامي، مشاهير الرحالة العرب،ط1، دار كنوز للنشر والتوزيع،القاهرة،2013 .

16. سعد عبود سمار،ابن حوقل دراسة تاريخية في كتابه صورة الأرض،ط1، تموز للنشر والتوزيع،دمشق، 2016.

17. شوقي ضيف ، الرحلات، دار المعارف ، ط4، القاهرة.

18. عبد المقصود عبد الحميد عبية، موجز تاريخ الأندلس من الفتح إلى سقوط غرناطة، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة.

19. ليلى أحمد نجار ، العلاقات بين المغرب والأندلس في عهد عبد الرحمان الناصر، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ،جامعة أم القرى، مكة المكرمة،(1402هـ/1403هـ،1982م/1983م).

20. محمد منير مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، دار المعارف،1987.

21. أحمد مختار العبادي ،في التاريخ العباسي والفاطمي ، د ط ، دار النهضة العربية ، بيروت.

22. عبد الرحمان حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ط4 ، دار الفكر،دمشق ،1980.

23. علي بن عبد الله الرفاعي، رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، المملكة العربية السعودية، 1410 هـ.

24. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين،مطبعة الترقي،دمشق،1960.

25. محمد عبدالله عنان ،دولة الإسلام في الأندلس،ط 4،مكتبة الخانجي القاهرة 1997.

26. محمد عبدالله عنان ،تراجم إسلامية شرقية وأندلسية،ط2نمكتبةالخانجي،القاهرة،1970.

27. محمود علي مكي ، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية،ط1،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة، 2004.

28. حسين مؤنس ،أطلس تاريخ الإسلام،ط1،الزهراء للإعلام العربي،القاهرة،1987.

29. نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب،بيروت،1987.

30. سالم بن عبد الله الخلف، نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس،ط1، المملكة العربية السعودية، 2003 .

31. عبد الواحد ذو النون طه ،الأندلس من خلال كتاب صورة الأرض ،المؤرخ العرب ، ع 23 ، بغداد،1983.